ليل مرير



سيد البحراوى

ليـــل مدريـــد

سيد البحراوي

الثالثة صباحا. ليل مدريد قـاس. أنتظـر - وحيـدة - موعد السحور. علاء نائم علي السرير، وأنا مستلقية علـي فوتيل مجاور. ضوء خافت. وأنا بملابس النوم. لن يـأتيني أحد بعد الآن. التليفونات أيضا توقفت قبـل سـاعة. حتـى الصائمون مثلي لا ينتظرون موعد السحور، يأكلون فـي أي وقت وينامون. وراءهم أعمال غدا. أنا لـيس ضـروريا أن أكون مستيقظة تماما في عملي. لا شيء يستحق اليقظـة. و النوم أصبح عزيز المنال.

أكتب لنفسى، لنفسي فقط، فربما استطعت أن أفهم ما أنا فيه بعد ذلك الوصف الفظيع الذي قدمـه الطبيـب النفسـي لحالتي. ليس مهما اسم المرض الذي ألصقه بي، وليس مهما شكه في إمكانية العلاج السريع ، أريد أن أقول له أنه لا يفهم شيئا، وأنني أنا الوحيدة التي أستطيع أن أفهم نفسي ومشاكلي، قد أكون مريضة لأني فعلا تعبانة، ولكن ليس بالمعنى الـذي أفهمنى إياه.

اسمي هناء. ولست أذكر أنني تمتعت - يوما مـا - بهـذه الصفة، ولست أعرف لماذا سميت بهذا الاسم، فلم يكن لـدى أهلي الوقت لكي يحكوا لي كثيرا من الأشياء التي سمعت من بعض زميلاتي أنهن قد عرفنها من أهلهن. فقد كان لديهم من المشاكل ما يصرفهم عن أن يهتموا بي أو حتى بأخي وأختي اللذين جاءا بعدي إلي الدنيا. ومـع ذلـك مـن الغريـب أن يسمياهما أيضا "رضا" و"صفاء".

لست هنية. هذا لا يكفي. فأنا أعرف ما هو أكثر عـن مشكلتي. بل أكاد أؤكد أنني أعرف بالضبط ما هي المشكلة. أعرف أنني أعيش حالة ضياع كامل. لا أعرف من أنا، ولا ماذا أريد، ولا ماذا أفعل بحياتي.

أعيش اليوم كله مشحوناً بالعمل وإعداد الطعام والعناية بعلاء قدر ما أستطيع. لكني - في هذا كله - أسـير كالآلـة التي لا تدرك ماذا تفعل. هى صيرورة نظمها خالقها سبحانه وتعالي وهي تسير بحكمته دون أن تـدري هـذه الحكمـة وأسرارها.

أشعر دائما بالإرهاق، ليس الإرهاق الجسـماني، بـل الروحي والنفسي، وحين أفكر في كيفية الخروج مـن هـذه الحالة، لا أجد مخرجا، ليست لدي رغبة في شيء. متعـاتى الصغيرة السابقة، الشراء، شراء الملابس، أدوات المكيـاج والتجميل، الأقلام، لم تعد مغرية. فلم يعد هناك مـا يـدعو للاهتمام بما ألبس وكيف أبدو. انتهت أيضا الرغبات العميقة الممتدة. الحب والشهوة. لا، الحب أساسا... أم هي الشـهوة أيضا؟ لا أدري.

هل أنا شهوانية حقا؟

جميعهم قالوا عني ذلك. ومع ذلك لـم أسـتطع، ولـم يستطع أحدهم أن يدخلني أبدا. زوجي فقط، أقصـد زوجـي السابق. وكان دخوله مؤلما، ولا أظن أنني استمتعت .

في المقابل كنت مع الآخرين أذوب نشوة لمجرد دغدغة حلمة الثدي. الثدي الأيسر. أما الأيمن، فقد كان مخصصـا لفترة طويلة - وما زال - لعلاء.، طفلي الجميـل الـذي لا أدري إن كنت قد أحببته أم كرهته. ولا أدري إن كان يحبني أم يكرهني بعد ما عاش معي كل ما عشت؟ هل أثر فيه هذا المشهد الذى تكرر مرارا، حينما كان يلعب بجواري، وأنـا أحب عبر التليفون؟ لو كان يكرهنى فربما كان له الحق.

لماذا يكون له الحق في أن يكرهني، ماذا كان يمكننـي أن أفعل وأنا الشابة الجميلة الشهية التي لم تكن تطيق أبـاه، هذا الحشاش الشاذ، الذي انشغل برفاقه عني، وليتـه كـان بعيدا. كان يأتي بهم إلي بيتي الذي اشتريته من مالي، أقصد مال أبي، وأثثته علي ذوقي. وصل به الأمر إلي حد توسيخه بهؤلاء الأنطاع، السباك والبواب والميكانيكي؟

ألم يكن التليفون أفضل من الاتصال المباشر. لم أكـن أستطيع الاستمرار حتى النهاية مع أحد. .حينما يصل الأمـر إلي ذروته كنت أجد الحجة المناسبة للهروب. ولكني كنـت أتعذب وأحاول ألا أظهر عذابي. لـم يكـن أمـامي إذن إلا التليفون. أكون وحدي بعد أن ينام الجميع، أو يسهر محمـود

في الخارج. وإذا كان ابني حقا، فيجب - حين يكبـر - أن يقدر مشاعري واحتياجاتي. بصراحة كانت أسـعد أوقـاتي، حين تجتمع المتعتان. الحب عبر التليفون، وطفلـي الحبيـب بجواري.

شعري جميل، مسترسل وناعم ، لم أقصصه أبداً، كانت أمي تحبه هكذا. كان ينساب علي جانبي وجهي محاذيا خدي الرقيقين مبرزا صورة ملائكية، لكنها لا تخفي الشـهوة فـي عيني.

غريبتان هاتان العينان. مزيج من الشـهوة والتصـوف والحلم.

حينما تكونان صافيتان ، تكون خضـرتهما شـعاعا لا يملك الآخر ، بل وحتى أنا، الفرار منه.

أشعر - حينما أكون هادئـة ومسـتريحة، أن وجهـي بتقاطيعه المنمنمة وشفتي الرقيقتين هو جـزء طبيعـي مـن جسمي، فله نفس الحجم الصـغير، الخفيـف، ولكـن هـذه الأرداف اللعينة الممتلئة لا أقبلها إلا في حالتين، حالة الصفاء المطلق، وها هو قد ذهب إلي الأبد، وحالة اليأس المطلـق.

في حالة الصفاء المطلق، كنت أراها كاحتياج تقليـدي قـديم كامن بداخلي إلي نموذج المرأة الجميلة، المريحة في الجنس، المهم أن يكون وسطي ضيقا. في هذه الحالة تساعدني سيقاني القوية ونوع الأحذية الخفيفة التي ألبسها والجونلات الواسعة الطرية، علي أن أتحرك بخفة ، فأبدو نشيطة ، وتصبح هـذه الأرداف في اهتزازاتها الواضحة الخفيـة مصـدر إغـراء، ولكنه يبدو غير متعمد. في حالة اليأس، كما أنا الآن، لا أملك إلا القبول، ليكن ما يكون، ليس مهما، ليس هناك أحد يهـتم بأن تكوني رشيقة أو سمينة، سافرة أو مختمرة.

لا أذكر الآن ماذا كنت أفعل قبل الحجاب. أظن أنني لم أكن أبدا خليعة في ملابسي، ولا صارخة في مكياجى، ربمـا كنت – حتى - أكثر هدوءا وخجلا مني الآن. فالآن يبدو لي حجابي أكثر خلاعة من سفوري. فأنا دون قصـد، أرتـدي بلوزات تكشف عن جزء من نحري، رغـم أن الإيشـارب يغطي الرأس والأذنين وكل الرقبة. أظن أنه قد آن الأوان أن يتحول الحجاب إلي نقاب أو حتى خمار.

كانوا يقولون عني دائما أنني أجمل من أمي رحمها ا ولم أكن أصدق. فوجه الشبه بيننا كبير جدا، كـان الفـارق

الوحيد هو حجم الجسم. كانت طويلة وأكثر إمتلاءاً، أما أنـا فقد ورثت القصر والنحافة نسبيا من أبي. الحمد أنني لـم أرث منه الوجه . فرغم أنه ليس قبيحا، إلا أن وجه أمي كان أجمل كثيرا. ولا أدري لماذا قبلت أن تتزوجه وهـى بهـذا الجمال والأنوثة وهو بهذا القصر والوجه المتغضن المـاكر. لا شك أن هذا الفارق كان أحد الأسباب الجوهرية للمشـاكل الفظيعة التي كانت بينهما ويخيل إلي أنها أهم المشاكل.

فالعلاقة الزوجية، أقصد علاقة السرير هى الجذر، رغم أن المشاكل الاجتماعية وخلافات الأفكار هي التـي كانـت تبرز علي السطح دائما في شجارهما. في بعـض الأحيـان كنت أشعر وأنا صغيرة جداً أن هناك شـيئا غامضـا وراء الشجار، وأن هذا الشيء يزداد مع الوقت.

كان الشجار يثور لأتفه الأسباب ، لكن الشجار ليس هو المهم فقد كان يهدأ سريعاً، بانسحاب الأب. المشكلة كانت في الخصام الدائم، الاحتقار الذي تحمله عينا الأم دائما، ونـوع غريب من الذلة أو الخنوع يكسو وجه الأب. لا أدري متـي حمل وجه كل منهما هذه المشاعر والتعبيرات؟ لا أذكر جيدا هذا الوجه لأبي قبل أن يسافر، صحيح كنت صغيرة، سنتان

أو ثلاث، ولكن تبقي في مخيلتي صورة لرجل باسِم الملامح، بعينين براقتين. أذكر أنني كنت أحبه، وكان يبدو عاشقاً لي ، يضمني بين ذراعيه حينما يراني مـذعورة بعـد الشـجار ويحتضنني بشدة وكان حضنه الدافئ الحنـون يعيـد إلـى هدوئى، فألوذ به مستنيمة إلى خدر لذيذ يسرى فـى خلايـا جسدى، أشعر به ينتقل إليه ، وكنت أري أمي مغتاظة إلـي درجة أنني كنت أظن أن هذا العشق كان أحد أسـباب كـره أمي المتزايد له. لكنه، وخاصة في العام الأخير، لـم يكـن يملك الوقت أو البال ليسعى إلي ليحقق عشقه الذي كنت أتوق إليه.

فيما بعد عرفت، وهو في السعودية، أن ذلك العام، كان العام الكئيب الذي حاصره وحاصر إخوانه فيه البوليس. كان مطلوبا القبض عليه مثل الآخرين، ولكنه نجح في الهـروب وبقي هناك سنوات طوالاً، وحينما عاد كنت في الجامعة.

لم تكن علاقتي بأمي طيبة أبداً. فرغم شبهي بها، فـإن حبي لأبي، فيما يبدو، جعلها تعتبرني ابنته، ممثلته، وأعتقـد أنني أيضا كنت أكرهها لأنها تكرهه، وعلي نحو مـا كنـت أعتبرها مسئولة عن غيابه. وحينما قررت أن أرتدي الحجاب

- أظن قبل عودته بعام - دخلت معها في معركـة عنيفـة، وكان واضحا لي آنذاك أنني أنتقم لأبي منهـا. فقـد كانـت الدوافع التي قادتنى إلي الحجاب غير واضحة بالقدر الكـافى لى.

أتذكر الآن هذا الجزء من خطاب هام أرسله إلى أبـى وأنا فى الثانوية، كان أول خطاب يأتى إلى باسمى الخـاص فى المنزل، وكان أول كلام هام يشعرنى أننى إنسان كبيـر عليه أن يحمل مسئولية و أن يفكر ويدرك معنى ما يعيش:

" ابنتى العزيزة هناء.

أظن أننى أستطيع الآن أن أتحدث إليك كشخص كبيـر وناضج، يستطيع أن يفهم تلك الأشياء التى كتمتها عنك طوال الفترة الماضية. فرغم أنك كنت دائماً ذكية ولماحة وحساسة، فقد ظننت أننى لابد أن أصبر حتى تكبرى لتفهمى وتقـدرى جيداً حجم المعاناة والألم اللذين تحملتهما خلال تلك السنوات.

أعرف جيداً كم تعانون من غيابى أو تحنون إلى، وخاصة أنت وأخوتك. أمك موضوع آخر، ربما أحدثك عنه فيما بعـد. لكن أنتم، وأنت بالذات، بكريتى وأنثاى الحقيقية، أشتاق إلـيكم، وأشعر أننى أذوى بعيداً عنكم. ولكن ما باليد حيلة.

سوف يأتى الوقت الذى تعرفين فيه كم كان ضرورياً أن أسافر، أن أهرب. كان البديل هو السجن وسوف يأتى الوقت الذى تعرفين فيه معنى سجن الطغاة. قد يكون السفر سـجناً آخر لأننى بعيد عنكم ولا أستطيع رؤيتكم، وأمكم قررت ألا تأتوا لزيارتى. لا بأس. ولكنه سجن مقبول إلى حد ما، فنحن هنا بجوار رسولنا الكريم، والمملكة تسمح لنا بحرية الوجود والحركة. وبالإضافة إلى ذلك أحصل على المال الذى نحتاج إليه والحمد .

ابنتي الحبيبة: هناء

أنا واثق أنك تعرفين كم أحبك. وأعرف كم تحبيننـى. مازلت أذكر تلك النشوة التى كانت تصيبنى حينما كنت آخذك فى حضنى وأنت تبكين بعد شجارنا أنا وأمك سـامحها ا . أريدك أن تعتمدى على هذا الحب فى مواجهة حياتـك. الآن أنت شابة جميلة فى مقتبل العمر. وعليك أن تحافظى علـى نفسك، وأن ترعى أخويك، وأن تتمسكى بدينك. فلا ملاذ لنـا سواه. وتذكرى أننا، حينما كنا متمسكين بديننا، كنـا قـوة لا يستهان بها، ولا تستطيع أى قوة أن تقف فى مواجهتنا، فتحنا الأمصار حتى وصلنا إلى الأندلس فى الغرب وإلى السند فى

الشرق، وهناك بنينا بإيماننا أمجاداً لم تزل حتى الآن، ولـن تزول إن شاء ا حتى يوم الساعة، لأن ا يرعاها.

ملحوظة: مرفق لك حوالة بمبلغ من المال خـاص بـك أنت، أتمنى من ا أن تكوني قادرة علـى إنفاقـه فيمـا لا يغضب ا ."

كنت - والحمد متدينة - وأجتهد في معرفـة دينـي وبيني وبين ربي علاقة خاصة لا أظن أنه أو أحداً من أهلي أو زملائي يعيش مثلها في لحظات الصفاء. ولكني في نفـس الوقت، جميلة وأحب جسمي، وخاصة وجهي وشعري**، هـذا الذي قررت** أن أحرم أمي منه فكنت ألبس الحجاب حتى فى البيت**،** ولم أكن أري السفور ضد الدين. ومع ذلـك لبسـت الحجاب.

لم أكن فقيرة مثلما كانت زميلاتي المحجبات في الأقسـام الأخرى فى الجامعة، أقسام الأعداد الغفيرة آنذاك. فقـد كانـت أمي غنية ورثت أرضاً ومالاً. للحـق كانـت كريمـة معنـا، وتضاعف الثراء مما كان أبي يرسله من مال تعويضا عن فقره السابق وعن غيابه الدائم. لذلك كان معي باستمرار كثير مـن المال، أنفقه بحرية لأشتري لنفسي، وأحيانا لأخوتي ما أشاء.

كنت أذهب إلـى كافتيريـا الكليـة وأدعـو زميلاتـي وزملائي، وكنت أذهب معهم في الرحلات القصيرة، حيث لم يكن مسموحا لي بالمبيت خارج المنزل ،أظن أنني قضـيت ليلة عند زميلة لى مرة أثناء مـذاكرة الامتحانـات. كنـت خجولة، لكني بملابسي وجمالي ومكياجى أبدو حرة. وكـان هذا مع ثرائى مصدر إغراء لزملائى للتقرب إلي ومغازلتي. لكني كنت أراهم أطفالاً صغاراً، وكان هذا يبعدهم عني، فيما عدا زميل واحد ظل حريصا علي الاقتراب مهمـا صـددته لكنه كان لطيفا. كان اسمه حمدي عبد الرحمن. كان أقـربهم إلى النضج، وكنت أرتاح إليه فى الأعماق، ولكن ملازمتـه للطلاب الاشتراكيين، جعلنى ابتعد عنه. فمع أنـى أحـب أن يسود العدل بين الناس، فلم أكن أرى أن الملحدين هم الـذين يمكن أن يحققوه.

المهم، ذات صباح في ربيع عامي الثاني بالكلية وجدت نفسي أتوجه إلي محل جديد قد افتتح. كـان اسـمه مغريـا، السلام شوبنج سنتر لملابس المحجبات، ومن هناك عدت إلي منزلي بعدة أطقم من الإيشاربات والبلوزات الحشمة وكـذلك الجونلات. ويومها انتهت صلتي إلي الآن بالجيب والبنطلون

والتي شيرت، ولكنها لم تنته بالملابس الداخلية الرقيقة الأنيقة ذات الألوان الزاهية وخاصة الحمراء وأحيانا أشتري قمصان نوم خاصة لرجل بعينه، وأحب أن ألبسه له وحده دون غيره، وإن كنت لا أخلعه له ولا لغيره وإنما لـي وحـدي وأمـام مرآتي. آه. حتى هذا لم يعد يسعدني الآن. حين عـدت فـي اليوم التالي إلي زميلاتى وزملائى بقسم اللغة الأسبانية، وقد ارتديت الزي الجديد، كان الوضع مضطربا جدا، فقد كنـت أول طالبة في القسم ترتدي الحجاب، بعضهم وبعضهن نفـر مني، والبعض الآخر وخاصة ممن يميلون إلـي الجماعـات الإسلامية فرحوا بي جدا، وبدا أن الحجاب قد فتح لهم أفقـا جديدا معي. ولكن ما شغلني أكثر هو الزميلات اللائى بـدت عيونهن مبلبلة ومهتزة ، تبدو رافضة، ولكن بداخلها شـوق عميق إلي ذلك الشيء السحري الذي بـات فـوق رأسـي، وكأنهن كن يتقن إليه مـن زمـن بعيـد دون أن يسـتطعن الوصول إليه.

كنت قد اخترت الدراسة بقسم الإسباني، وإن لـم تكـن رغبة قديمة لدي. لكن هذا هو الطريق الذي قـادتني إليـه طريقة أمي في التعليم. فبعد سفر الأب وجدت أمي الطريـق

أمامها سهلاً لتضعني في مدرسة فرنسـية. وبعـد سـنوات طويلة من الدراسة بالفرنسية لم أرغب في استكمال الطريـق إلي فرنسا. مع انتهاء الدراسة الثانوية، وبقراءات قليلة، كنت قد بدأت أحلم بإسبانيا، المجد الإسلامي القديم، الذى أشار إليه أبى فى رسالته، فدخلت قسم إسباني.

وكان هذا قدري ومصيري الذي قادني إلى ما أنا فيـه الآن.

كان خالي شابا وسيما، كنت أراه - حتـى - جمـيلاً. ورث مثل أمي عن أبيها كثيراً من الملامح التي ورثتهـا - بدوري - عنها. كان يكبرني بحوالي عشر سنوات. ورغـم أنه أخو أمي فإن علاقته بأبي كانت لطيفة. أستطيع أن أذكر الآن كيف كان يهش له أبي حينما كان يأتي لزيارتنا قبل أن يسافر أبي، وحينما سافر، استمر في المجيء عندنا لأنه كان أصغر اخوالي، وبالتالي الوحيد الـذي لـم ينشـغل بأسـرة وأطفال. كان ما يزال طالباً فى الثانوية ، بعـد ذلـك درس الطب وتخرج وأصبح طبيباً ناجحاً وله الآن زوجة وطفلان.

فى بعض الأحيان كان يبيت عندنا، في حجرة أبي التي كان قد اعتاد قبل سفره أن ينام فيها وحيداً. الآن هي مغلقة.

فليس بها ما يجذبنا، سرير ومكتبة بها بعض الكتب الدينيـة، ومكتب. إلى مكتب أبي كان يجلس خـالي "خالـد" يـذاكر دروسه، تاركا الباب مواربا، فهو ليس في بيته. مـن هـذه الفتحة، بدأت أتلصص عليه حينما لا يأتيني النوم. كان جادا لا يفارق المكتب وكان هذا يدهشني ويجعلني أتساءل كيـف يصبر علي البقاء علي مقعده كل هذا الوقت، وأنا لا أستطيع مواصلة المذاكرة أكثر من ساعة، ودون مكتب، وأنا مستلقية علي بطني فوق السرير.

بصراحة أعجبتني شخصيته (هل كنت أفهم هذا المعنى فى ذلك الوقت؟) ولأني أكبر أخوتي بدأ اهتمامي به يزداد.. فأنا أستطيع أن أعد له الشاي بدلا من أمـي أو بـدلا منـه. أستطيع أيضا أن أوقظه فى الصباح إذا طلـب منـي ذلـك. أستطيع – إذن – أن أنقر الباب وأدخل غرفته مساءا لأسـأله إن كان يريد شيئا، أو لأسأله أن يشرح لي بعـض الأشـياء الغامضة، ولا هي غامضة ولا حاجة (هل كنت أعي ذلـك؟) وكان هو يشرح لي بهدوء وثقة، وابتسامة من يدرك القصد.

صرنا أصدقاء إلي درجة أن ألفتي بغرفتي، مـع أخـي وأختي، قد تضاءلت، وصرت أقضي كثيرا من ليالـي فـي

غرفته. أجلس مع كتابي في مواجهته، أو صـامتة لأتركـه يذاكر لو لم يكن لدي واجب. ومع الوقت أحضـرت مائـدة شاي صغيرة ووضعتها في مواجهـة مكتبـه لأؤدي عليهـا واجبي، لأقلده، ولم يعترض. وبدأت الليالي التي لا يأتي فيها إلينا تصبح معذبة بالنسبة لي، وخاصة أنه كان يتركني مـع أمي التي صارت شديدة التوتر، بعد سنوات من غياب أبـي وعدم وجود من تتشاجر معه سواي. علي الأقل كان خالـد يحمل عنا عبء بعض المشاجرات، أنا وأخوتي.

ذات ليلة، وقد جاء خالد، وبعد المذاكرة قال:

يا روحى نامى، أنا هانام.

قلت، لا. مش هسيبك الليلة دى، انت سبتنا خمس تيام، لازم تعوض غيابك عنا، ها أنام معاك هنا.

في هذه الليلة شعرت بحنان لم أعشه أبدا في حياتي قبل ذلك. كان هناك ما يذكرني بحضن الأب وذراعيه تضـماني بشدة، لكن كان هناك شيء آخر، هناك دبيب ما يسري فـي عروقي، يشعل شيئا في جسدي لم أعرفه مـن قبـل. كـان الظلام تاما، كنت أستطيع أن أشعر بتوتر غريب يعاني منـه

خالد، ويحاول أن يكبته. ضم صدري بين ذراعيه وساقي بين ساقيه، وظل يضغط بهدوء وصمت مع أنفاس متلاحقة لكنها لم تكن مزعجة بالنسبة لي. فقد كنت - رغم الألم الخفيف - مستمتعة باسترخاء لم يحدث لي أبداً، إلي درجة أنني نمـت بين ذراعيه، ولم أستيقظ إلا في الصباح، لأجد نفسي وحيـدة في السرير ولأري أمي تخبرني ، أنها استيقظت هي أيضـا ولم تجده.

غاب خالد هذه المرة أسابيع طويلة، كنت خلالها أكتشف أشياء غريبة عني وعن العالم، أكتشف أجزاء من جسمي لم تكن موجودة قبل ضمة خالد، وأحاسيس غريبة تنتـابني لـم أكن أعرف عنها شيئاً قبل ذلك، وفهما غامضاً لنظرات أمي، تتجاوز الكره القديم لتصبح عداء حقيقيا، بل ومواجهة حـادة في بعض الأحيان. بل بدأت أعي أشياء وعبارات في الشارع وفي المدرسة لم أكن ألتفت إليها قبل ذلك أبداً.

عجيبة هذه الضمة الطويلة الهادئة المتزايدة، ضمة خالد الذي اختفي. ومع ذلك لم أبحث عنه. جاء وحده بعد أسـابيع خافض النظرات وكنت أشتاق إليه. حاول أن يبعـدني عنـه بكل الطرق، ولكني كنت قد كبرت وشعرت أن لي عليه حقا.

أنني أمتلك جزءا منه ولم يستطع أن يقاوم وظل يأتى بانتظام من أجلى بالتأكيد حتي انتهي من الدراسـة الثانويـة، ولـم يحصل علي مجموع يدخله كلية الطب التي كـان يتمناهـا. فأرسله أبوه إلي كلية الطب في المجر، وتركني وأنـا فـي التاسعة من عمري. ولكني لم أتركه، ولست أدري إلـي الآن إن كنت سأستطيع أن أتركه أبدا.

كان مستحيلاً أن أتخلص من خالد. وكنت أبحث عنه في كل من حولي. وكان مجالي الوسـيع هـو أسـاتذتي فـي المدرسة. وقد وجدته فعلا عدة مرات، في مـدرس المـواد الاجتماعية في الإعدادية وفي مدرس الفلسفة فـي الثانويـة. ولكني لم أستطع أن أنالهما، رغم أنني أخذت مع كل منهمـا دروساً خصوصية في نفس غرفة خالد. لم ينلني من الأخير، سوي قبلات قصيرة، وأحضان سريعة، لم تعوضني أبداً عن قبلات خالد وأحضانه المديدة التي انتهت في بعض الأحيـان إلي ركوبه فوقي واهتزازه يمينا ويسارا لمدة طويلة، ومد يده إلي فخذي وما بينهما، تحت جلبابي الرقيـق قبـل أن يهـدأ أخيراً، وينام وديعاً بين ذراعي.

فى هذه اللحظات، كنت أشعر، أنا الطفلة الصغيرة أننى

قد أصبحت أمه، وهو شعور ظل يلازمنى مـع كـل مـن احتضنت من الرجال بعد ذلك. ومع علاء أدركـت إلـى أى مدى هو شعور جميل، بالنسبة لـلأم، وضـرورى بالنسـبة للطفل.

ذات مرة وحين كنت أعبث فى أدراج مكتب خالد، بعد أن سافر، وجدت ورقة يبدو أنه قد نسيها تحـوى اعترافـاً خطيراً:

"هذه البنت خطر كبير. أنني لـم أعـد قـادراً علـى مقاومتها. غضاضة أطرافها، ولين أعضائها تعطينى شعوراً غريباً لم أجربه مع النساء اللائى عرفتهن، الخادمـة كانـت أكبر منى، وكانت مدربة وقوية، كانت تضغط على بمـا لا أحتمل. ربما كنت- آنذاك- مازلت صغيراً. ابنة الجيران، لم يتح السلالم والظلام، فرص الاستمتاع بها، بما يكفـى. مـع هناء –رغم شعوري بالخطيئة والذنب- كنت أستمتع حتـى النهاية، وكانت هى أيضاً تبدو مستمتعة، وقادرة على الإمتاع بهدوء وصمت، لم تكن تبدو لى خائفة من أمها، ولا أن لديها شعوراً- مثلى- بالذنب. لا أدرى ماذا ستفعل هذه الشـيطانة فى المستقبل. لقد أحببتها حقاً وأرجو ألا أكون سبباً فى تدمير

حياتها. على كل حال. لست قادراً على مقاومتها حتى الآن".

أسعدني أن أعرف أنه كان مستمتعاً، وأسـعدني أكثـر تعبيره عن أنه كان يحبني، وهذا الشعور جعلني –رغم بعده- أظل متعلقة به باحثة عنه، دون أن أجده.

فيما بعد...فيما بعد وجدت خالد.

كان قد عاد من بعثته. ولكن كانت معه شقراء وطفلـة جميلة، وبدا كما لو كان قد نسيني. وكنت أنا بالفعل قد نسيته. كنت قد أصبحت إنسانة أخرى. لم أعد طفلة، كنـت علـي وشك الحصول علي الثانويـة العامـة، وعرفـت آخـرين يشبهونه، وإذا كانوا لم يعوضوني عنه. فإنه هو نفسه، لم يعد قادراً علي أن يعوضني عن نفسه. فقد ظلت حاجتي إلي مـا زرعه في لا تروى مع أي أحد وبأي حال مـن الأحـوال. كانت شيئاً غامضاً عميقاً غريباً وغير مفهوم ولكنـه قـوي وممتد كأنه تخلل خلايا الدم والروح.

مع دخولي الجامعة، كنت أكبر من سني علـي الأقـل عاطفياً، ولذلك كانت عيناي تجولان خارج صفوف زملائـي الطلاب، إلي منصة التدريس. وللأسف كـان معظـم مـن

يدرسون لنا من النساء، ولم يكن لدينا سوى مـدرس واحـد انصبت عليه أنظار كل البنات. رغم أنه لم يكن شبيهاً بخالد، فقد حاولت التقرب إليه ولكني لم أنجح...وربمـا لـم أكـن أرغب بجدية في النجاح. كنت مشـغولة طـوال السـنوات الأربع بالإسبانية وبالرحلات القصـيرة، وبمتعـة الجـنس المستقل التي علمتني اياها واحدة من زميلاتي. هـي متعـة حقيقية، لكنها مؤلمة إذا لم تنجح، بالإضافة أنها محرمة فـي الغالب. علي الأقل عند بعض الجماعات الإسـلامية التـي سمعت أيضا أنها تحرم الموز والخيار. عندهم حق، فأنا كنت أحيانا قبل أن آتي إلي أسبانيا، اسـتخدمها، بالإضـافة إلـي إصبعي. يقولون أنه سيصبح شاهدا علي يوم القيامة.

في بعض الأحيان حين يغلبني اليقين بأن العادة السرية حرام كنت أستسلم للسحاق، الذي كان قد انتشر بين زميلاتي في تلك الفترة. فهذا السحاق لم أعرف عنـه التحـريم، بـل بالعكس سمعت أن هناك نساء عربيات كن يمارسنه من قديم. ولكني أنا شخصيا بصراحة لم أستمتع به، فليس فيه الولـوج الذى أخاف منه وأشتهيه وليس فيه حتى الضخامة التي كانت تواجه ما بين فخذي مع خالد.. قد يكون فيه الحنان والرقـة،

ولكن ليس فيه الإثارة ولا العنف اللذيذ مع الرجال (تري هل اضطر للعودة إليه في حالتي الراهنة؟).

لم أرتح للطريق الذي سارت فيه كثيرات من زميلاتـي في القسم وفي الكلية، وسمعت أنه قد انتشر في الجامعة كلها. أقصد الزواج العرفي. لم أكن في ذلك الوقـت راغبـة فـي الارتباط الدائم، وخاصة أن خالي كان ما يزال في خيـالي، بالإضافة إلي أنني خشيت الحمل والمشاكل التي ستنجم عنه، ولم أستطع أبدا أن أتخيل كيف يمكن أن أواجه أهلي إذا حدث ذلك. وقبل ذلك وبعده، لم أكن أتصور أنني يمكن أن أخضع لأحد يلجني في العمق.

حافظت طوال سنوات الدراسة الجامعية الثلاثـة علـى تقدير واحد. جيد. لم أكن أذاكر كثيراً، ولكن خلفيتى فى اللغة الفرنسية، وذكائى، كانا كافيين للحصول على هذا التقـدير، بحد أدنى من المذاكرة، قبل الامتحانات بأسبوعين. لم أكـن أطمح لأكثر من ذلك. لأنى لم أكن أعـرف مـاذا سأصـنع بشهادتى بعد التخرج. ولكن يبدو أن الحلم الإسبانى، وعـودة أبى بعد غيبة طويلة- قد ساعدانى – دون أن ادرى- علـى بذل مزيد من الجهد فى السنة الرابعة، بحيث أننى حصـلت

فى الامتحانات على درجة أعلى من كل زملائى، أهلتني لأن أكاف معيدة.

سعدت بهذا التفوق والتعيين سعادة بالغـة، لا لأن هـذا موقع اجتماعي متميز. فقد كانت المناصب الجامعية قد فقدت بريقها، لدرجة أنني سمعت أن الكثيرين من المتفـوقين فـي كليات الهندسة وغيرها قد رفضوا التعيين في هذه الوظيفـة. ولكني سعدت بها لأنها كانت تعني اقتـراب تحقـق حلمـي بالسفر إلي أسبانيا. هذا الحلم الغريب الذي بـدأ منـذ فتـرة الثانوية، والأغرب أنه بدأ بالإعجاب بزي رجـل البـوليس الأسباني الذي رأيته مرة في السينما أو فـي التليفزيـون لا أذكر. بعد ذلك تزايد الحلـم بـالقراءة ودراسـة الحضـارة الأسبانية، هذه الحضارة المركبة والمعقدة، والتي أتصور أنها قائمة - لا بد - علي مزيج من الحب والكره مـع العـرب، القدماء والمحدثين، لكنهم، علي كل حال، يقولون أنهـم الآن بدأوا في تعديل نظرتهم إلي العرب، وبالتالي كيفية التعامـل معهم.

لم أنجح في الحصول علي منحـة أسـبانية ولا بعثـة مصرية، دون أن أنتهي من رسالة الماجستير، ومن هنا كان

لقائي الأول بالدكتور هاني. كان قد عاد من أسبانيا بعـد أن أنهي رسالته للدكتوراه وكان يستطيع المشاركة في الإشراف مع إحدى الأستاذات بالقسم، بحكم قربه من تخصص رسالتي في الحضارة. لم يكن وسيما مثل خالد، وكان أكبر منه قليلا، ومع ذلك لست أدري لماذا ذكرني به. والغريب أنه فـي أول لقاء حميم سألني إن كان لي خال يشبهه، وبصراحة لم أنكر، بل بالغت في أوجه الشبه دون أن أدري لماذا... فيمـا بعـد أدركت أن هذه المبالغة كانت في محلها، فقـد كـان جـاداً وحنوناً ورقيقاً مثل خالد تماما. بل أن أنفـه الحـاد وعينيـه اللامعتين بالذكاء وشفتيه الرقيقتين، كلها كانت تذكرنى بخالد، وإن كان هاني قمحى اللون، بينما كان خالـد أقـرب إلـى البياض.

كان يبدو لمن يراه من الخارج مزهوا بنفسه وبعلمـه، أنيقاً في ملبسه بسيط لا يتكلم كثيرا. وراء ملامح وجهه مـا يوحى بأنه بذل جهدا كبيرا في الحياة كي يحقق مـا وصـل إليه.

فيما بعد عرفت أنه من أصول قاهرية بسيطة وأن أبـاه كان موظفاً في وزارة الزراعة وأنه الآن علي المعاش. وأن

أمه كانت ست بيت لا تجيد القراءة ولا الكتابة، وأنه اعتمـد علي نفسه كثيرا أثناء الدراسة، وأنه جعل وظيفة معيد هدفـه الأسمى لكى يخرج من وضعه الاجتماعي وقد نجح بالفعـل. ولذلك فإن تعاليه الظاهري علي البنات الدلاليع كان مفهومـا بالنسبة لي. لكن في العمق كان لطيفا وحنونا. هكذا كان معي فيما بعد.

في هذه الأثناء كان أبي قد أجبرني علي الـزواج مـن محمود؛ مهندس في شركة بترول ومن أسرة متوسطة الحال، ولكن مستقبله – كما قالوا – سيكون رائعا. في الحقيقـة لـم يكن رفضي رفضا لشخصه، فلم يكن لدي أي شيء ضده، أو معه. فقط كان يقاربني في السن، وأنا لا أحب ذكـور هـذا الجيل، يبدون خاوين وعقولهم صـغيرة، ويحتـاجون إلـي أمهات أكثر مما يحتاجون إلي زوجات. بالإضافة إلي أنهم لا يعرفون معني الحب، لا بالمفهوم الرومانسي، ولا بـالمعني الجنسي. إنهم يلهون فقط. نزوات طارئة قلقة غير مستقرة. بالإضافة إلي ذلك لم أكن متعجلة في الزواج. كنت مشـغولة أكثر بمستقبلي وحلمي بإسبانيا، كما أن مشـاكلي العاطفيـة كانت محاولة بالطريقة إياها.

غير أن أبي كان قلقا من سلوكنا في المنزل. كنـا قـد اكتسبنا حرية لم يكن يتخيلها. نخرج وندخل وقتمـا نشـاء، يأكل كل منا بمفرده في أي وقت، ليس هناك نظـام للبيـت. كان توتر أمي الدائم دافعا للبقاء خارج البيـت أطـول مـدة ممكنة. كان قلق أبي علي صفاء أكثر من قلقـه علـي، لأن سلوكها فعلا كان غريبا، ولم أكن قد انتبهـت إلـي هـذا إلا حينما عادت شجارات أبي معها - رغم انكسـاره وعجـزه اللذين صارا ظاهرين الآن. أما أخي رضا الذي كان أكثرنـا تحررا واستفادة من غياب أبيه ومن ماله، فلم يهتم بـه أبـي كثيرا، لأنه - علي كل حال - ولد.

حاول أبى منذ أن عاد ووجدنا على هذا الحال أن يعبر عن قلقه، وأن يعيد توجيهنا إلى السلوك السوى الذى يرضى ا ، لم يكن يعجبه انفلات رضا، ولا كثرة خـروج صـفاء وملابسها المتحررة ولكن محاولاته باءت بالفشل، فقد كـان من المستحيل أن يصلح فى شهر ما أفسـده عبـر سـنوات طويلة. كان يعرف ذلك، كما ألمح فى خطابه السـابق لـى، وكان واضحاً من ملامح وجهه التى تزداد تغضناً أن يـوقن بفشله مسبقاً، وخاصة أن الفشل قد تحقق بالفعل فى محاولاته

لإصلاح علاقته بأمى، التى بدت وكأنها قـد تحسـنت فـى الأسابيع الأولى، ولكنها سرعان ما عادت إلى وضعها القديم.

فى كثير من الحالات، كان غيظ أبى يخرج عن نطـاق قلقه علينا، إلى الأوضاع العامة فى البلد، التى عاد فوجـدها خربة فاسدة متهرئة. فرغم أن الوضع السياسى الذى سمح له بالعودة كان أفضل من تلك الفترة التى اضطر فيها للهروب، فإن التحلل الأخلاقى والفساد الإدارى والتدهور الاقتصـادى، كان يجعل هذا التحسن لا قيمة له، بل أنه –كما يقـول فـى نهاية حديثه- يمكن أن يقضى عليه، ويحوله إلى الأسوأ.

ورغم أن أبي قد سعد حينما رآني محجبة ومحتشـمة، ومع سعادته بتفوقي وبتعييني معيدة، وبحلمـي الإسـباني-العربي القديم إلا أن هذا لم يمنعه من القلق علـي أيضـا. ، وبدا لي أن قلقه علي ليس إلا جزءا من قلقه علي صفاء. فأنا الأكبر وإذا نجح في تزويجي، فسيكون أسهل عليه، بعد ذلك، أن يتخلص منها. وهكذا وجد لي عريسا مناسـبا، وبعـدها بشهور وجد لها عريسا آخر، واشتري لنا شقتين وجهزهمـا لنا علي أفضل ما يكون.

كانت شقتي جميلة، بجوار سور نادي الترسانة. شقة من

ثلاث غرف وصالة بالدور الثالث، تطل علي النادي مباشرة، مما كان يعطي للنظر راحة وهدوءا، جوها لطيف صيفا وشتاء. اشتركت مع أبي في اختيارها. أما شقة صفاء فقد كانت في وسط المدينة، ورغم أنها كانت تبدو أكثر فخامة - بناء علي اختيارها - فقد راق لي أن أعيش في حي هادئ، بعيدا عن صخب المدينة وضوضائها.

بعد ذلك بسنتين اشتري أبي شقة ثالثة لرضا الذي ظـل يرسب طول الوقت في كلية التجارة. ورغم أنه كان يستطيع أن يعيش في شقة أبي وأمي بعد رحيلهما، بعد عمر طويـل، إلا أن أبي أراح ضميره واشتري له شقة بثمن شـقتينا أنـا وصفاء معا.

قبل أن أتزوج محمود، وفـي فتـرة الخطوبـة، التـي استمرت حوالي أربعة أشهر، اكتشفت مشكلة كانت سببا هاما في انفصالنا بعد ذلك. فأثناء تجهيزنا للشقة، وكنت حريصـة علي أن أختار بذوقي كل تفصيلة فيها، بدا واضحا أنه ابـن أمه؛ لا يستطيع أن يخالف لها أمرا. وكان هذا يزعجني جدا فهل سأتزوج طفلا أم رجلا. وهل ستتحكم في وفي علاقتـي به هذه الأم. قلت لنفسي ونصحنى أبي أيضا عليك بالتحمل،

فهي - علي كل حال - لن تعيش معنا. المهم أصررت علي تنفيذ معظم أحلامي في الشقة، ونجحت في تنفيذها لأن المال كان مال أبي في نهاية الأمر.

بعد الفرح التقليدي الذي بدا لي مناسبة اجتماعية للأهل أكثر منه تعبيراً حقيقياً عن الفرحة، عدنا أنا ومحمـود إلـي شقتنا كي نستعد للسفر في اليوم التالي لقضاء أسبوع عسـل في الإسكندرية. لم يبد محمود متلهفا علي مضاجعتي، ولـم أكن خجلة كالعروس التقليدية، ولكني في نفس الوقت لم أكن متلهفة علي الفعل. ربما كنت أود أن أكتشف فيـه شخصـا قادرا علي الملاطفة والحنان. قبلات وأحضان. فعل ذلك بقلق واضح وبدون تمهل ولما لم يجد مني استجابة قوية - بسبب قلقه - نام.

قضينا أسبوع العسل في هدوء نتفـرج علـي البحـر والمدينة ولاتبدو علي أي منا رغبة شـغوفة فـي ممارسـة الجنس. بصراحة بدأ القلق يدب إلي نفسي فأخـذت اسـتفز رغباتي ومشاعري كي أحركه ليفعل شيئا وهذا مـا حـدث بالفعل. في الليلة الأخيرة. أخذت أحفزه باغراءاتي المتعـددة حتي انتصب وولجني، دون أن أستمتع إطلاقاً. كـان الألـم

فوق الطاقة، وهو الذي اقتيد إلي هذا الوضع لم يكن قـادرا علي التراجع، ولم يكن - في نفس الوقت - يعـرف كيـف يعالج الموقف بلطف. سال الدم بغـزارة وسـالت دمـوعي كاسحة، ونام هو.

ظللت مريضة بعد عودتنا حوالي الشهر. ومع أنى أعتقد أن الجميع قد أدرك ما حدث، فإن أحداً لم يتفوه بكلمة. فقـط زيارات التهنئة التي بـدت زائـدة عـن المـألوف، لمـدة أسبوع.وبعد ذلك تركنا الجميع لممارسة حياتنا، ما عدا أبـي وأختي صفاء اللذين ظلت زياراتهما لي - نهارا - لرعايتي في حالة المرض الذي بدا لهما إجهادا جسـمانياً وعصـبياً سرعان ما يزول. كانت صفاء هى الوحيدة التى أمكننـي أن أصرح لها- بإيجاز- بالمشكلة، وإن كنت غير متأكدة أنهـا أدركت مدى خطورتها بالنسبة لى.

أخذت أجازة من عملي وعاد محمود إلي عمله. فكنـت أقضي معظم وقتي في السرير. وأجتهد فقط في إعداد الطعام وتنظيف البيت تنظيفاً يسمح باستقبال الضيوف. ولم أسـتطع أبدا أن أنسي عنف تلك الليلة الفظيعة. لمت محمود أساسـا، ولكني بدأت أتأمل نفسي أيضا وأحاول تحليل ما فعلته تلـك

الليلة. لماذا أغريته إلى هذا الحد ولماذا لم أستمتع إلى هـذه الدرجة. وأدركت أن السبب لم يكن محمود وحده، وإنما كان هناك خالد وعضوه القوي بين فخذي. كنت أرغب في خالـد حينما أغويت محمود، رغم أنه لا علاقة بينهمـا. محمـود أبيض الوجه مكلبظ ضخم الجثة وخالد نحيف، مسمسم، رقيق الملامح. ومع ذلك لم أغفر لمحمود أبدا عنفه معي. وأخـذت نفسيا أستعد لرحلة أخري، لم أكن آنذاك أعرف اتجاهها ولا علاقتها بالرحلة التي رغبتها قبل ذلك إلي أسبانيا. فقد كنـت في حالة من الوهن الجسمي والنفسي لا يسمح لي بـالتفكير العميق.

أثناء النهار كنت أحاول إخراج نفسي من السرير للقـاء أبي أو أختي وقضاء لوازم البيت الداخلية. فقد تكفل محمـود بشراء ما يلزم من الخارج، بل إنه كان يحب ذلك، أما الليـل فكنت أقضيه كاملاً في السرير. أقرأ بعض الوقت روايـات خفيفة، ثم أنام غير عابئة بوجود محمود أو عدم وجوده. فهو نفسه لم يكن راغبا في مقاربتي. وحين يأتي للنوم يأتي بخفة وهدوء لدرجة أني لم أكن أشعر به إلا في الصباح.

كان أحيانا يأتي لي بالطعام وأنا في السرير ليلا ويحاول

أن يتقرب إلى، وكنت أبادله كلمات قليلة وحينمـا لا يراهـا كافية للتجاوب، كان ينتظر حتي أنتهي من الطعـام ويحمـل الصينية ويخرج، لا أدري إلي أين.

وفي ليلة من الليالي، بعد منتصف الليل - فيما أظـن - استيقظت على أصـوات غريبـة، همسـات، حشـرجات، ضحكات خافتة لأشخاص متعددين. ولأني كنت مـا زلـت مرهقة تخيلت أنني أحلم، وغلبني النوم. ولكن هذه الأصوات تكررت في ليالٍ تالية متعددة، وكنت قد تعافيت قليلا، بحيث أستطيع تمييز هذه الأصـوات: أصـوات رجـال يـدخنون ويهزرون ، واستطعت أن أميز بينها صوت حامد البـواب الذي كان يبعث محمود معه المشتريات أحيانا. ويبدو أن هذه الأصوات قد اطمأنت إلي غيابي بعـد عـدة مـرات فـزاد ضجيجها. وكان اعيائي قد خف كثيـرا، فبـدأت متابعتهـا بانتباه، ورويدا رويدا أخذت أقترب من باب الحجرة لأستمع إليها، وأنظر من ثقب المفتاح لأشاهد ما يحدث.

أربعة رجال وشيشة وموقد صـغير. يجلسـون علـي الأرض، يستندون بظهورهم إلي كراسي الصالون وكنبتـه، يمدون سيقانهم في اسـترخاء ويسـتندون بكيعـانهم علـي

المخدرات الصغيرة. يتناوبون فيما بينهم خرطوم الشيشة في سعادة واضحة ويلقون بنكات بذيئة وقفشات. عرفت من بينهم حامد كما خمنت من صوته في الليالي السابقة، وكان هنـاك آخران، أحدهما خمنت أنه سلامة الميكانيكي الذي كان يصلح سيارة محمود. لم يذكر الاسم في الجلسـة، كـانوا يسـمون بعضهم البعض بأسماء الدلع، سوسو وحوحو...

لاحظت أن صوت محمود كان يرق مع الوقـت علـي نحو لم أكن قد سمعته منه من قبل.ولاحظت أنه يميل - فـي جلسته - بجذعه، لتكون مؤخرته في مواجهة البواب الـذي كان قريبا منها بوضوح. بهت وقبل أن أسقط - وراء الباب - لاحظت أن الاثنين الآخرين كانا فى الوضع ذاته.

انتهت علاقتي بمحمود، ولكن بذور الحمل كانـت قـد بذرت مع اللقاء الوحيد الذي تم بيننا. كم ندمت علـي دوري في هذا اللقاء. لكن كان الأوان قد فات، ولم يعد يجدي الندم. المهم الآن أنني مع زوج تابع لأمـه ومخنـث. صـارحت محمود بالمشكلتين واقترحت عليه حلولا، عاونني فيها دكتور هاني الذي قدر أن محمود لديه مشكلة نفسية وأنني لا بـد أن أساعده في حلها سواء بالتفاهم معه أو بمساعدة طبيب نفسي.

لم يقبل محمود صراحتي، ويومها ضربني ثم هدأ وحـدثني عن مشكلاته مع أبيه وأمه. ولكنه لم يقبـل فكـرة العـلاج النفسي. لم ير نفسه مريضا يحتاج العلاج. قال إن كثيراً من زملائه وأصدقائه لديهم نفس المشـكلات، وأنهـا أصـبحت مشكلات عادية ومنتشرة، ولسنا فى حاجة إلى إصلاحها، بل علينا التأقلم معها.

كانت علاقتي بهاني قد بدأت بالتدريج بعد فترة المرض التي أعقبت الزواج.حين تعافيت منه ذهبت إلـي الجامعـة، وحاولت أن أعيش حياتي الطبيعية. وكان أول شيء طبيعـي أن أعد خطة للتقدم بها لتسجيل رسالة الماجسـتير. بعـد أن انتهيت من السنة التمهيدية كنت قد اخترت العمل في مجـال الحضارة الأسبانية وخاصة في المرحلة الأندلسية.

كانت محاضرات أستاذتي خلال السنوات الأربـع قـد شدتني إلي هذه المرحلة، ونبهتني إلـى أن علاقـة العـرب بالأسبان تحتاج إلي مزيد من البحث، ليس فقط لفهم الإنجاز العظيم الذي تحدثت عن وجوده المستمر هناك. وإنما أيضـا لفهم التدهور الذي أصابنا نحن العرب منـذ خروجنـا مـن الأندلس وحتي الآن. وهذا التدهور الذي وصـل الآن إلـي

أقصاه وخاصة بعد حرب الخليج الثانية التي شـاهدنا فيهـا تدمير العراق علنا علي شاشات التليفزيون... وشهدنا معهـا أيضا تدمير علاقة العرب ببعضهم الـبعض إلـي زمـن لا يعرف مداه إلا ا . أيامها شهدت بأم عيني ما لم أكن أتخيل حدوثه في حياتي. شهدت البوليس المصري يقتل أحد الطلاب الذين كانوا يتظاهرون محاصرين داخل الجامعة ضد العدوان الأمريكي علي العراق، والذي أيدته حكومتنا بل وشـاركت بقوات فيه بحجة تحرير الكويت.

مع مرحلة إعداد الخطة، بدأ التعامـل مـع أسـتاذتي الدكتورة سناء والدكتور هاني. اطمأنت الدكتورة سناء مـع اللقاءات الثلاثية الأولي إلي مهارة الدكتور هـاني وصـلته بالموضوع، فتركتنا نلتقي وحدنا بعد ذلك.

كان بالفعل ذكيا وملمـا بكـل مـا يتصـل بالتـاريخ والحضارة الأسبانية، بالإضافة طبعا إلي إجادته التي كانـت تبهرني باللغة الأسبانية، وكنت أتحسـر علـي مسـتواي إذا قارنته بمستواه، أنا التي كنت أظن في نفسي الإجادة التامة - طبعا مقارنة بزميلاتي وزملائي من الطلاب. لكن الـدكتور هاني كان يطمئنني حين يقول أن هذا الاتقـان لـيس ميـزة

شخصية وإنما هو بسبب الحياة بين الأسبان، وأنني حين أعيش معهم سوف أتقنها أفضل منه. كانت هذه لحظة تواضع نادرة بدت منه فأزالت التعالي الظاهري وقربتني منه.

لم نكن نملك - بالكلية - أماكن تسمح لكل منا بغرفة أو حتي بمكتب. كان للقسم كله غرفتان، واحدة للأساتذة والأخري للسكرتيرة والمعيدين. وكان لقائي بالدكتور هاني يتم في إحدي الغرفتين. وكانتا دوما مزدحمتين بالأساتذة والزملاء، بحيث أننا إذا كنا في حاجة إلي مناقشة طويلة، فإن البحث عن مكان آخر كان أمرا حتميا. راودني هذا كثيرا، ويبدو أيضا أنه راوده، لكن للأمانة، كانت التلميحات تصدر مني أنا أكثر، حيث أعبر عن استيائي من الزحمة والضوضاء بأشكال مختلفة. ولا شك أن هذا كان متوافقا مع تزايد إعجابي به، وتزايد إدراكي لأوجه الشبه بينه وبين خالد، بالإضافة إلي تفاقم الأزمة بيني وبين محمود. فمع إصراره علي عدم العلاج طلبت الطلاق دون أن أخشي علي طفلي القادم. فرفض، فلجأت إلي أهلي وأهله الذين رفضوا جميعا الفضيحة التي أردت أن أسببها لهم من كل ناحية.

حين أدرك هاني بعض ملامح المشكلة أخذ اهتمامه بي

يزداد وساك سبلاً متعددة لمساعدتي نفسيا وليس فقط علميـا. أعلن أن معي حق وأنه يسندني بكل ما يملك وطمأنني، وكان ينصحني في كيفية تدبير أمور حياتي، والاهتمـام بمعرفـة إمكانياتي الحقيقية وعدم التفريط فيها لأي سبب من الأسباب. كنت أتصل به كثيرا وكان يطلبني أحيانا في مواعيد مختلفـة حيث لم يكن وجود محمود أو عدم وجوده يفرق معي بعد أن وصلنا إلي ما وصلنا إليه. وكانت التليفونات فرصة أفضـل بالنسبة لي كي أحمل كلماتي معاني مزدوجة سرعان ما كان يلتقطها وينميها، لتشير إلي اتجاه أوضح نحو ضرورة علاقة عميقة لا تصلح لها غرفتا القسم. وهكذا وجدتني أخرج معه إلي بعض الأماكن العامة في البداية، ثم أذهب إليه في شـقته بعد ذلك...

خارج القسم اكتشفت في هاني أشياء كثيرة زادت مـن إعجابي به وأحنقتني منه أيضا. عرفت أنـه كـان- وهـو طالب- يميل إلى الجماعات الاشتراكية والناصـرية، وأنـه شارك معهم فى بعض المظاهرات ومجلات الحائط. لكنه لم ينتم أبداً إلى أى منهم. كان همه الأساسى منصباً على النجاح والتفوق.

قال أنه بعد أن تخرج وسافر إلى إسبانيا أدرك أن مـا ورثه من أفكار عن السياسة وحلم التغيير لا قيمة لها بهـذه الطريقة، وأن مجتمعنا- وليس فقط السلطة الحاكمة- متخلف ولا أمل فيه. عرفت أنه قد تزوج أثناء بعثته فـي أسـبانيا، وانهما متحابان، لكنها لا تستطيع أن تترك عملها في أسبانيا، فتأتي إليه أو يذهب إليها في الإجازات. وحين رأيت صورتها وجدتها جميلة جدا. وفي نفس الوقت كانت شكواه دائمة مـن الوضع في الجامعة وفي مصر كلها. تبدأ الشكوى بالقـذارة والضوضاء التي كان يسميها بالتلوث البصـري والسـمعي وتنتهي إلي غياب العلم وتفشي الجهل والأمـراض والفقـر وسوء التنظيم...الخ. ورغم موافقتي التامة علي كل ما كـان يقول، بل وحتى إعجابي بالصيغ الفكرية التي يعبر بها عـن هذا الازدراء، إلا أنني كنت نافرة مما بدا لي انبهارا بأسبانيا وتبريرا للخروج من مصر إليها كلما أتيحت له الفرصة (كي يلتقي بحبيبته) وربما إذا جاءته فرصة للهجرة، لا أظن أنـه كان سيتردد في قبولها. وبدا لي أنه عاد إلي مصر فقط حتى لا يضطر إلي دفع مصاريف البعثة.

ذات مرة وكانت علاقتنا قد توطـدت، جـرؤت علـي

التعبير عن هذه الخواطر بصيغة مهذبة قلت: تبـدو إسـبانيا جميلة جدا في عينيك.

ولكنه تجاهل التلميح الذى كان وراء كلماتي وصـمت فترة طويلة، ثم قال: أولاً لا تنسى أننى مصـرى، وأحـب بلادى، وأعرف مصلحتها جيداً، وكذلك أعـرف التحيـزات الإسبانية المنطلقة من مصالحهم، ومن وعيهم بهذه المصالح، ومع ذلك، لابد من الاعتراف بأن هناك الكثير من الصـفات الجميلة التي تتمتع بها أسبانيا كطبيعة وحضارة وبشر.

حكى أن الأوروبيين يعتبرون أن أفريقيا تنتهي بإسبانيا، ورغم أن هذا يغيظ الأسبان ويجعلهم يبذلون أقصي جهـدهم لكي يكونوا أوروبيين حقا حتى في نمط عنصـريتهم ضـد العرب، فإنهم فعلا يتميزون عن بقية الأوروبيين بأن لـديهم إنسانية عالية وتعاطفا وفهما وتسامحا معنا، ربما جاءت مـن صلتهم القديمة بالعرب والمزيج الحضاري الذي يعيشونه في حياتهم.

كان هذا رأيي أنا وهو المتصل بموضـوع رسـالتي، ولذلك سعدت حينما وصل إلي هذا التفسـير، ولكنـه فجـأة تدارك:

لا. هذا غير صحيح. لقد تذكرت الآن لحظتين قاسيتين مرتا علي حين زرت الجنوب (أي الأنـدلس) لأول مـرة. اللحظة الأولي كانت في مسجد قرطبة الكبير وأمام اللوحـة التي يركع فيها ابن عبد ا آخر ملوك الأندلس مقبلا أقـدام القادة الأسبان. أحسست بالذل والإهانة إلي حد البكاء. اللحظة الثانية حينما زرت قصر الحمراء وحدائقه. درجة الانبهـار بهذا الإتقان والتنظيم والفخامة جعلتني أشعر بالزهو لكـوني عربيا. لكن في اللحظة التالية مباشرة قلت لنفسـي: لـو أن العرب بقوا في الأندلس حتى الآن، لما اسـتطاعوا الحفـاظ علي هذا الجمال بما آل إليه حالهم.

أردت أن أقول له ما كان أبي قد قاله لي عنـدما علـم باختياري لموضوع الرسالة "إن تدهور العرب الحالي لـيس إلا نتيجة لهزيمتهم في الأندلس، واستقواء أوروبا منذ ذلـك الوقت عليهم وعلي غيرهم"، ولكني خشيت أن يعتبر ذلـك نتيجة مسبقة لرسالتي وأنا في البداية. بالإضافة طبعا إلي أن إعجابي به كان قد بلغ حدا يمنعني مـن كثـرة الاعتـراض عليه، خشية فقده، علميا وإنسانيا.

حين أخذت الأيدي تتلامس،، ثم تتشابك بقوة، لم يكـن

هاني قد عبر لي أبدا - بصراحة - عن إعجابه بي. لكن - فيما يبدو - أن الرغبة التي ولدتها كهرباء التلامس، دفعتـه ليبثني كلمات الغزل ثم التعبير عن مشاعر مكبوتة في كلمات عن القرب من القلب والسريان في الروح. فيما بعد صـرح لي أنه كان من البداية معجبا بي. لكن حبه لزوجته التـي لا يستطيع التخلي عنها وكوني متزوجة، والأهم كوني تلميـذة له، كانت عوامل تمنعه من التعبير عن هذا الإعجاب وإقامة علاقة. كان مهتما بأن يوضح لي بقوة أنه لا يقـيم علاقـات أبدا مع طالباته وأن هذه هي أول مرة يحدث فيها ذلك.

من هذه الجملة اشتممت - رغم تقديري لهذا الموقـف المبدئي - المعني السلبي للجملة: أنه - إذن - يمكن أن يقيم علاقات أخري مع غير الطالبات أو أنه أقام فعلا. لكن لأني في هذه اللحظة كنت في حالة وهن تحـت تـأثير أول قبلـة طويلة جميلة منذ زمن طويل: منذ قبلة خالد، لم أستطع الكلام أو حتى مواصلة التفكير قي هذا الأمر.

لاحظ محمود كثرة خروجي. وكثرة التليفونـات التـي تأتي. وإذا رد عليها لا ترد عليه، ولا أدري إن كان رد فعله هو نوع من الغيرة، أم أنه أدرك أن هناك شيئا ما يهدده.

في البداية حاول أن يكون عنيفا في غضبه واتهاماته. ولما لا يجد صدي لأنني كنت قد وصلت إلي يقين بأنه لا شيء يربطني به، فلم أكن أهتم بثورته ولم أكن أرد عليه. تجاهل تام تقريبا، خاصة وأنني كنت مقتنعة أننى لا أفعل شيئا يغضب ربي، أو يسيء إلي العلاقة الشرعية التي تربطني بمحمود الذى كان مستمراً فى قضاء لذته مع الآخرين. قبلات هاني وأحضانه فقط. صحيح أنها كانت تطول فترة من الزمن يكفي ليصل إلي ذروة لذته، ولكن لم يحدث أبدا أن تجاوزنا هذه الحدود.

لذتي كانت تبدو دائما ممتدة هادئة وتتحقق بالتدريج. في أحيان قليلة كنت أنغمس في شهوة عارمة تجعلني أذوب بين أحضانه، ويبدو لي أنني مستعدة لأعطيه كل ما يريد. ورغم هذه الحالة التي أكون فيها، ورغم سهولة الوضع بالنسبة لي وله، فلم يكن يقتضي الولوج سوي خلع سروالي، حزام عفتي، الذى كنت أصر علي الاحتفاظ به تحت قميص النوم الشفاف الرقيق. رغم ذلك كنت أفيق في اللحظة المناسبة، وأضم ساقي وعضلاتي بقوة قادرة علي مقاومة الدنيا كلها. كان هذا مؤلما لي وله ولكن لم يكن باليد حيلة. فإذا كان ما

بيني وبين محمود قد انتهي، فإن ما بيني وبين ربي لا يمكن أن ينتهي. بل إنني أشعر أنه يزداد متانة وقوة وعمقـا فـي الفترة الأخيرة. أراه يرعاني ويحميني في كـل خطـواتي، وأراه ملاذي الوحيد، وحبي الحقيقي. كنت أسير فـي اتجـاه روحاني عجيب قادر علي الاستعلاء علي شكليات الجماعات الإسلامية التي هيمنت أفكارها علي عامة الناس فـي ذلـك الوقت وإن لم أكن أعرف بعد إلي أين سيؤدي بي.

لما لم ينجح محمود في مواجهتي بالعنف، لجأ إلي اللين. حاول أن يقترب مني، واعترف بما لم يعترف به في البداية: أنا فعلا علي صلة بحامد وغيره، و هـذا أمـر قـديم وقـد تصورت أنه سينتهي مع الزواج، ولكن الزواج لم يفلح فـي علاجه.

كان طبعا يلوح باتهامي ومسئوليتي، ولكنه لـم يجـرؤ علي إعلان ذلك صراحة، كما فعل قبل ذلك.

وبجرأة غريبة حاول محمود أن يستدرجني إلي عالمه. ليس بالطبع عالم الشذوذ، وإنما عالم الحشيش والبانجو. قال: إن سيجارة واحدة من البانجو أو سيجارتان مـن الحشـيش، تكفي لتجعلك ترتفعي فوق العالم كله وتنسي كـل مشـاكلك.

عالم آخر غريب تشعري فيه بأنك كائن آخر، وأنك قريبة من نفسك، ومن الناس... وأيضا من ا . ولمزيد من الإقناع قال إن الكثيرين من المتصوفة كانوا يتعاطون الحشيش والأنواع المختلفة من المسكرات حتى يستطيعوا التعالي علـي دنايـا العالم ويتصلوا مباشرة با .

كان محمود غريبا جداً في تلك الليلـة، لدرجـة أننـي اقتربت منه نفسيا، دون اتصال جسدي. ومما زاد اقتنـاعي بكلامه أنه أخبرني أنه في هذه الحالة لأنه كان قـد ضـرب أربعة بانجو في تلك الليلة. كان عامل دماغ.

حكي لي أشياء غريبة عن عـالم أصـدقائه، وخاصـة سلامة الميكانيكي، أشياء جعلتني أشعر أنني غريبة عن هـذا المجتمع ولا أعرف ما يدور فيه. حكي أن سـلامة يكسـب كثيرا، ممكن يكسب خمسين جنيه في اليـوم ولكـن أسـرته المكونة من سبعة أفراد يحتاجون إلي ضعف هذا المبلغ كـل يوم بمصاريف المدارس والطعام والكسوة والأمراض...الخ. وأنه لا يعرف ماذا يفعل ليكفيهم وهو الذي ينهد حيله طـوال اليوم وجزءا من الليل. ولا يجد أمامه إلا الهروب. يعطـيهم ما يكفي الطعام ويستأثر بالباقي لنفسه، كـي ينسـي تعبـه

وهمومه مع سيجارتين البانجو أو الحشيش. وأنه زهق مـن مراته ولم يعد يجد فيها ما يغري، فـي حـين أن صـديقهم زوزو واد لطيف وجميل ومغرى.

تقززت من كلام محمود وشعر هو بذلك. فعاد ليحدثني عن مزايا المخدرات، ودعاني إلي سهرة عنـد واحـد مـن أصدقائهم في الليلة التالية. وجدت نفسي ميالة للذهاب علـي الأقل لمعرفة هذا العالم عن قرب، وإن كنت في قرارة نفسي قد شعرت برغبتي في تجربة هذا الشيء الذي لم يسبق لـي تجربته، والذي يبدو قادرا علي التسامي بي إلي هذه الدرجة فوق همومي وتناقضات حياتي.

وكانت ليلة ليلاء. لا أدري ولا أتخيل حتـى الآن مـا حدث ومهما أكدت لنفسي أنه حدث، فلن أستطيع تصديقه.

كانت سهرة عند صديق لمحمود يعمـل موظفـا بأحـد البنوك، ويبدو أنه من أسرة شديدة الثراء. فقد كان أثاث منزله فخيما لكن بدون ذوق. ذوق الأثرياء الجـدد. كانـت السـهرة بمناسبة عيد ميلاد صاحب البيت، وفوجئت بأنها قـد جمعـت الشامي علي المغربي، رجال وزوجاتهم أو رجـال وحـدهم و نساء وحدهم. أعمار مختلفة. كان بينهم عازف عود.

بدأت السهرة هادئة. الذين يعرفون بعضـهم يتحـادثون بأصوات عالية والذين لم يتعارفوا تـم تعـريفهم ببعضـهم البعض. بعد وقت قليل أخذت السهرة سمة الألفة بين الجميع، ثم أخذت سجائر المخدرات تدور مـع بعـض المشـروبات الكحولية، لم يكن يرغبها الكثيرون من الموجودين. الـبعض جمع بين الاثنين. ومع الوقت أخذت الألفة تـزداد وتـزداد النكات والقفشات...في البداية كنت أشعر بغربة شديدة. ولكن حرص صاحب البيت وزوجته ومحمود علي الاهتمام بي، ثم مع تتابع الأنفاس التي بدت لي حارقة ولاذعة في البداية ثـم سرعان ما اجتذبني إليها التأثير الهـادئ اللذيـذ. فواصـلت مستمتعة ولكن بهدوء ودون مشاركة في الحديث أو النكت.

بعد العشاء وتقطيع التورتة جاء دور عازف العود الذي بدأ يعزف ألحانا معروفة لمغنين معروفين، أم كلثوم ونجـاة وعمرو دياب ومحمد فؤاد وكنا نغني معه، وفجأة أحضـرت صاحبة البيت طبلة وأعطتها لزوجها، الذي أخـذ يصـاحب عازف العود برشاقة وطواعية، فبدأ يعزفـا لحنـا راقصـا، جعلنا نهب جميعا في نوبة جماعية مـن الـرقص. توقـف عازف العود ليخلي الساحة لضارب الإيقاع ليلعب بنا كمـا

يشاء. وقد كان بما رعا بالفعل. يعلو الإيقاع ويتسارع فتتسارع حركات أجسادنا ثم يهدأ لتهدأ قليلا، ثم يعود وهكذا. كنا كأننا في حفلة زار أو حلقة ذكر في مولد.

أثبتت النساء طبعا تفوقهن علي الرجال فـي الـرقص. رأيت أن بعضهن يمكن أن يتفوق علي نجوى فـؤاد وفيفـي عبده. كنت ألاحظ ذلك وأنا أرقص بينهن ولكن لم أكن ألاحظ نفسي. فقط كنت مندمجة في الحركة الجماعيـة، لا أسـعى لإبراز أي تميز عنهن. كنت سعيدة مع نفسي، أحلم تقريبـا، وأشعر أن روحي تنساب مع حركات جسمي الحرة.. الحرة من كل قيد، حتى قيد الحجاب الذي كان قد سقط عن شعري الذي لم يكن مربوطا فسال علي كتفي وجبهتي وأخذ يتمايـل مع حركات رأسي وجسدي. وجدت نفسي التقط الإيشـارب وأربط به وسطي. كل ذلك دون أن أتوقف عـن الـرقص. ويبدو أن أحدا لم يلاحظني فالجميع مندمجون فيما هم فيـه. ويبدو أن هذا قد شجعني علي فعل أشياء أخري لم أنتبه - أنا نفسي - إلي أني فعلتها. فقد أدركتها حين وجدت نفسي فوق مائدة الطعام - التي كانت قد خلـت - أرقـص، وحـدي، عارية، وهم يراقبونني في حالة ذهول ونشوة.

كما توقعت، تزوجت صفاء بعدي بشهور قليلـة. كـان زواجها مأساة أكبر من مأساتي. ولكن يبدو أنها كانت أقـوي مني، أو علي الأقل أكثر اتساقاً مع نفسها.

سمحت ظروف نشأة صفاء أن تكون أقل تناقضاً وأكثر واقعية وتحرراً. أقصد ظروف البيت. فارق السن بيني وبينها جعلها بعيدة عن الصراع الذي عشته بين أبي وأمي، وفـي حين كنت قريبة من أبي، كانت هي قريبة مـن أمـي التـي سقتها التحرر والبعد عن قيم أبي ومبادئه.

لم تتحجب صفاء وحين صارت فتاة...كانت قادرة علي أن تخرج بحرية مع أصدقاء من الجنسين، وأن تقيم علاقـة كاملة مع ذكور.. كانت أمي تعرف ذلـك وتجتهـد لتحمـي صفاء من النتائج. وكنت أعرف ذلك وأرفضه وأغتاظ منـه، لأني لا أستطيع أن أفعل مثله. أما رضا فكـان لاهيـا فـي خروجاته ولا يهتم بأمورنا إلا حين يحب ممارسة رجولتـه علينا أحيانا قليلة.

قبل أن تتخرج صفاء من كلية الألسن، كانت قد أحبـت زميلاً لها أو هكذا تصورت، وحينما قرر أبي أن يزوجهـا، ولم يكن حبيبها قد تخرج بعد، ولـم يكـن يسـتطع التقـدم

لخطبتها، عاشت صفاء عذابا أليما لاضـطرارها الانفصـال عنه، تحت ضغط الأب وموافقة الأم التي لم تكن تثق في هذا الحب كثيرا، وكذلك أنا. ويبـدو أن وجهـة نظرنـا كانـت صحيحة لأن صفاء - بعد المعاناة - قبلت الزواج من عبـد الفتاح قريبنا الذي كان يعمل مع أبي في السـعودية، وظـل يعمل هناك بعد عودة أبي. ولو كانت صفاء العنيدة، قد أحبت حقاً لما كانت قوة فى الأرض تسـتطيع أن تفـرض عليهـا التخلى عن هذا الحب.

تزوجت صفاء وسافرت مع زوجهـا إلـي السـعودية. ورغم أننا لم نكن صديقتين حميمتين أنا وصفاء، فقد شعرت بوحدة وافتقاد حقيقيين، وخاصة بعد أن تكشف حب صفاء لي أثناء مرضي بعد الزواج. كانت هي الوحيدة التي تزورنـي وتحكي معي وتمرضني وتحاول أن تجعلني قوية في مواجهة ما يحدث لي. كل ذلك في نفس الوقت الذي كانت هي تعيش أزمتها الحادة. لم أكن في ذلك الوقت قادرة علي مسـاعدتها، لكني حاولت التخفيف عنها، بعد أن شفيت، وبعد أن كانـت هي قد تجاوزت أزمتها. ساعدتها في مرحلة النقاهة. ويبـدو أن هذا قد خلق بيننا منطقة جديدة من الأخوة لـم نكـن قـد

عرفناها من قبل.

بعد مشهد الرقص عارية ازداد شعوري بالفقـد الحـاد لصفاء. فليس لي أصدقاء، وهي الوحيدة التي كان يمكـن أن تساعدني، ولكنها غير موجودة.

استيقظت في اليوم التالي وأنا في حالـة غريبـة. فـي الأعماق سعيدة جدا لأنني لم أكن أتخيل أن لـدي كـل هـذه الرغبة في الحرية. ولم أكن أتخيل أن الرقص يمكن أن يفجر مخزون الطاقة الهائل الجميل الذي يكمن بداخلي علي هـذا النحو، ولم أكن أتخيل أيضا أنني أمتلك إمكانية التعامل مـع جسدي وروحي بكل هذا الحب والرعاية. ولم أكن أتخيل أن اكتمالهما في هذه الحرية يمكن أن يعطيني كل هذه السعادة.

في نفس الوقت كنت أشعر بخجل مـن نفسـي ومـن الآخرين لا أدري كيف أواجهه. شعرت بهـذا الخجـل فـي الصباح فقط، فقد انتهت الليلة السابقة بهدوء. فوجئ محمـود مثل الآخرين بوضعي فوق المائدة. وكما حكى لي بعد ذلك، لم يع - للحظة - كيف يتصـرف. لكنـه أوعـز للعـازف بالتوقف عن العزف الذي كان قد أصبح لـي وحـدي لعـدة دقائق، ولكني واصلت الرقص علي إيقاعي الـداخلي الـذي

كنت قد توحدت معه. جاء محمود وبهدوء أخذني بين ساعديه وبحنو حتى هدأ إيقاعي وأنزلني من علي المائدة وذهبنا إلي الحمام وهناك ألبسني ملابسي (كنت قد احتفظت فقط بحـزام العفة) وبلل وجهي بالماء وسندني حتى وصلنا إلي السـيارة، ثم إلي السرير. والغريب أنه لم يحاول أن ينام معي، في تلك الليلة التي اعتقد أنني كنت فيها غير قادرة علي الرفض، بل ربما كنت أرغب فيه.

علي كل حال تحسنت علاقتي بمحمود نسبيا بعـد تلـك الليلة، لأنني اكتشفت فيه هذا الجانب الحنـون الـذي كـان ازدرائي له منذ الزواج وربما قبله - قـد حجبـه عنـي - وقدرت له هذا الموقف الراقي الذي لا أظن أن رجالا كثيرين يمكنهم أن يمارسوه مع زوجاتهم. ومع ذلك فلم يبتعد عـن ذهني تماما احتمال التفسير الآخـر: قلـة النخـوة وانعـدام الشهامة الناتج عن... الشذوذ. وأيا كان التفسير، فقد أعطاني سلوكه نوعا من الراحة، لأنه - علي كل حال - سـيتركني أفعل ما أشاء. وعلي أنا أيضا أن أتركه يفعل ما يشاء.

زال إذن خجلي أمام نفسي وأمام محمود. أما الآخرون فلم أرهم بعد ذلك. وبقي زهوي بجسدي وبطاقاتي الداخليـة،

مما شجعني علي الإيغال في علاقتي بهاني.

بدأت أشعر أنني أحبه، وعبر هو أيضاً عـن مشـاعر تغزوه، ولكنه كان دائما يعبر عن حبه لزوجته وتمسكه بها. وبالفعل، حين كانت تأتي في زيارة، طبعا لم أكن أراه، وكان يبدو شديد السعادة معها، ولم يكن يتعمد إخفاء هذه السـعادة حينما أكلمه في التليفون أو يكلمني نادرا.

بدأت أشعر بنوع طاغ من الغيرة، جعلتني أحيانا أطارده في الجامعة، أو حتى في البيت حينما أكون متيقنة من غياب زوجته. وكان هذا يزعجه، رغم تفهمه له، مما أدي به إلـي طردي من أمام باب بيته عدة مرات. وكان هذا جرحـا لـن أنساه له أبدا. وخاصة أنه جاء في شهور الحمل الأخيرة التي كنت فيها شديدة العصبية والتعب.

حين كانت علاقتنا تستعيد بعضاً من صفائها، كان يقول لي أن ما أشعر به ليس حبا. هو بحث عن أمان مفقود. وكان يقول - ولم أكن أفهم آنذاك - أنني مريضة بعقدة أوديـب، وأنني أبحث عن رجل يعوض غياب الأب، وهذا مسـتحيل. والبحث نفسه مرضي. كان يقول أن نسبة كبيرة من البنـات الصغيرات في هذه الأيام يعشن هذه الحالة المرضية. وكذلك

الأولاد، يعيشون عقدة إلكترا.بسبب غيـاب الأب أو الأم أو كليهما عن الأطفال، بحثا عن المال في الخـارج. وللأسـف يتركون أولادهم عبئا علي آخـرين، لا يسـتطيعون مهمـا حاولوا أن يحققوا لهم هذا التعويض.

لم أكن أصدقه، رغم اقتناعي بمنطق كلامه. كنت أتهمه بأنه لا يريدني لأنه يحب زوجتـه، وأنـه يسـتعملني عنـد الحاجة. وكان يصمت. وبعد فترة يأخذني في حضنه ويعبـر عن فهمه لي ولمشاكلي ومساندته لي حتى أتجاوزها.

مع بداية الخريف سجلت رسالتي رغم كـل التـوترات التي عشتها خلال هذه الشهور. وبعدها بشهر وضعت علاء. وبدأت حياتي تأخذ منحى جديدا.

لم أكن أرغب في الحمل أو الإنجاب من محمود. جـاء الحمل رغم أنفي - رغم مشاركتي فيه - ووقع عبؤه الأكبر علي أنا وحدي. تعذبت كثيرا تسعة شهور الحمل ثم الولادة. ومع ذلك فقد مرت علي لحظات كثيرة من السعادة وأنا أتابع حركات الجنين في أحشائي: كـائن حـي، إنسـان يتشـكل بداخلي، وأنا أساعده علي الحياة، بل أنا الذي أحييه. استغفر ا العظيم ماذا لو مت هل يحيا. ربنا قادر علي كل شـيء.

وكم من أطفال ماتت أمهاتهم وهم أجنة ومع ذلك هيأ لهم ا أسباب الحياة. المهم كنت سعيدة بأنني أمتلـك مخلوقـا هـو مولودى الذي سأراه ذات يوم، كائنا حيا يسـعى ويتحـرك، يضحك ويبكي، يلهو ويرضع، يمسك ثديي ويستدر لبنـي، آخذه في حضني، يعطيني الدفء وأعطيه الحنان. مشـاعر غريبة لا تدركها إلا الحامل.

حين جاء علاء كنت في حالة إغماء بعـد القيصـرية، وبمجرد الإفاقة طلبت أن أراه. كان هادئـاً وديعـاً، مغلـق العينين، لا ينم وجهه عن أي اتجاه في ملامحه، نحو أسرتي أو نحو أسرة محمود. بعد ساعات بدت ملامحه تميـل إلـي مزيج من الاثنين وإن كان إلي أبي أميل. أزعجني هذا قليلا، ولكني قلت لنفسي، وقال الزوار، إن ملامح الطفل تظل فـي حالة تغير لمدة طويلة.

احتواني علاء احتواء كاملاً. احتل مشاعري وعقلـي وجسمي، وحامت العوالم الأخرى حولي علي الهامش كأنهـا أطياف بعيدة أراها بنصف عين. كذلك الأشـخاص، حتـى هاني، عندما جاء لزيارتي في المستشفي في اليوم التالي، لم أره كما كنت أراه قبل ذلك. تذكرت طيفا حنونا كان يحتويني

أحيانا، ليس أكثر.

ندمت كثيرا أنني لم أستعد لمجيء علاء بالقدر الكـافي. لم أعد له ما يلزمه في الشهور الأولي كما تفعل الأمهـات، ولم أقرأ ما يساعدني علي كيفية التعامل معه، لم تهتم أمـي بذلك، فقد كانت علاقتنا شبه مقطوعة. بالإضافة أنها كانت قد بدأت تمرض كثيرا في الفترة الأخيرة وزاد عليا الروماتيزم القديم. فلم تفعل مثل الأمهات. جاءت لزيارتي بعـد الـولادة مثل الغرباء. أم محمود هي التي اهتمت بي. عادت معي إلي البيت وبقيت معي يومين وساعدتني في مواجهـة الظـروف الجديدة.

ولكن ما إن تعافيت واستعدت صحتي حتى وجدت نفسي أتعامل مع علاء تلقائياً بمهارة ودقة بدتا لي كما لـو كانـت جزءا غريزيا من الأمومة التي تتدفق مثل لبن الثدي تماماً.

بعد أيام وجدت علاء يفرض وجوده واختياراتـه فـي الحياة، يبكي حينما يجوع أو حينما أهمله - ولم يكـن ذلـك بقصد - أو حين يشعر بالانتفاخ. تعلمت كيف أميز بين أنواع بكائه المختلفة، وأن أعـرف أنمـاط ابتسـاماته العشـوائية ونظراته الزائغة التي بدأت رويدا رويدا تتركز علي وتتجـه

أينما اتجهت. الأهم من ذلك ، أنه اختار الثدي الأيمن وحـده كي يرضع منه، وعاف الأيسر. لم أفهم سبب اختياره إلا فيما بعد. سألت الطبيب فسألني عما إذا كان هذا الثدي قد أصيب بمرض ما. تذكرت أن خراجا صغيرا كان قد أصابه وأنه قد تم فتح الخراج وبقي أثره في حلمة الثدي.

رغم الأرق والإرهاق بسبب قلة النوم كنت سعيدة جدا. أشعر - لأول مرة في حياتي - أنني أملك كنزا يخصني أنا وحدي ولا يستطيع أحد أن ينازعني فيه. فلا هو محمود الذي استولت عليه أمه ورفاقه، ولا هاني الـذي تشـاركني فيـه زوجته. علاء لي أنا وأنا وحدي، ولم أكن أدرك آنـذاك أن هذا الشعور بالذات، والذي كان مصدر كل اهتمامي وسلوكي مع علاء سيؤدي إلي توتر علاقتي به بعد ذلـك. ولطالمـا حذرني هاني من هذا الاهتمام الذي كان يعتبره اهتماماً مبالغاً فيه ومرضياً لتعويض إحباطاتى، وكنت أتهكم عليه وأسـأله هل يمكن لرجل بالغ عاقل أن يغار من طفل ما يزال يرضع!

في هذه الفترة لم أكن قادرة علي العمل فـي رسـالتي ولذلك بدأت أهتم بالبيت، أرتبه وأنظفه. بدأت أهتم بـالزرع وبالموسيقى. كنت أحب الموسيقى العربية القديمة وأغاني أم

كلثوم وعبد الوهاب وفيروز، ولكني كنت مهووسـة بأحمـد الحجار وخاصة أغنية "عود" فيها رومانسية غريبة مفتقدة في هذا الزمان، كنت أحن إليها دائما. الأغاني التـي يسـمونها أغاني الشباب لا تمس أوتار قلبي، قليل منها، أحيانا محمـد فؤاد أو محمد منير. أغنية "من أول لمسة" غريبة... حساسة، دافئة، ذكية العواطف، حنونة، يملك إمكانيات هائلـة ولكنـه كثيرا ما يضيعها.

قبل علاء لم أكن أشاهد التليفزيون نهائيا، ومعه، ربمـا لأني كنت معظم الوقت بالمنزل، كنت أجلس أمام التليفزيون أحيانا أثناء الرضاعة أو اللعب. اكتشفت كم هو تافه ما يقدمه برامج ساذجة، مسلسلات تافهة، إلا في أحيان قليلـة، مثـل مسلسلات أسامة أنور عكاشة أو محمد صفاء عامر أو يسرى الجندى. لم يأسرني التليفزيون، ولكن الراديو كـان مفتوحـا معظم الوقت وخاصة عندما أكون في المطبخ لإعداد الطعام أو وجبات علاء الصناعية التي نصحوني بهـا رغـم عـدم اقتناعي. كنت أري أن لبني الطبيعي كاف، وأنني أحـب أن أعطيه كله له. ونصحتني حماتى بالوجبات الصناعية بحجـة أنه ينبغي أن أعوده علي الاستقلال عني.

من الراديو كنت أستمع إلـي البرنـامج الموسـيقي أو برامج ربات البيوت وأحيانا نشرات الأخبار، رغم أنني لـم أكن أهتم بالسياسة كثيرا. لكن مع استمرار سماعي للأخبـار بدأت أنتبه إلي أن أحداثا مهمة تجري فـي العـالم. شـدتني المذابح التي تحدث للمسلمين في يوغوسلافيا سابقاً، وانتبهت إلي مفاوضات السلام التي تجري بـين إسـرائيل ومنظمـة التحرير الفلسطينية. ورغم أنهم علموني في كتب التاريخ في المدرسة أن إسرائيل قد أصبحت صديقة، فإن كل ممارساتها في فلسطين ولبنان والجولان تقول غير ذلك، وخاصة في ما حدث في صبرا وشاتيلا سنة١٩٨٢. لا أعتقـد أن إسـرائيل تريد سلاماً حقيقياً.

ورغم الهموم والكوارث المنتشرة في العالم، كنت أعيش سعيدة وكأنني في جزيرة منعزلة، بسبب علاء، الـذي أخـذ جماله يزداد يوما بعد يوم، وبدأ انشغالي به يزداد إلي درجة استولى فيها علي كل وقتي، وشغلني عن كل من حولي وما حولي، وكأنني قد اكتشفت إنسانا آخر بداخلي، إنسان يفـيض بالحب والحنان والرغبة في العطاء المطلق، لأن علاء كـان بمبادراته الصغيرة، حركة اليد، ابتسامة غير مقصودة، رفسة

رجل... كان يبادلني مشاعري وينميها لأكون أكثر إنسـانية وصفاء وحباً للعالم.

بعد إجازة الوضع عدت إلى عملي بالجامعة. لـم تكـن لدي محاضرات كثيرة، يوم واحد في الأسبوع. كان عـلاء يبقي مع محمود أحيانا أو أذهب به إلى أمي أحيانا أخـري، وحماتي نادرا. حين عدت إلي الكلية لم أكن قد رأيت هـاني منذ شهور عديدة ومع ذلك فقد كان لقاؤه بي - رغم الحفاوة - غير متلهف. فسرت ذلك أنه ربما كان لأننا فـي مكـان العمل. ولكني اكتشفت بعد ذلك السبب الحقيقي.

حين طلبت منه لقاء بحجة البدء في تنظيم العمـل فـي الرسالة أعطاني موعدا في القسم. وبالفعل كان لقاء مثمـرا ساعدني على أن أبدأ في جمع مادة بحثـي مـن المصـادر والمراجع ونقل المهم منها في «كروت» بحث، علمني كيفية كتابتها وترتيبها. لم أكن وقتها قد قبلت إمكانية التعامل مـع الكمبيوتر الذي أعتمد عليه الآن في إعداد الدكتوراه. وقتهـا كنت أحب أقلامي وورقي المتعدد الأنواع والألـوان، كنـت أحب خطي. حتى هذا لم أعد أحبه!

لكن الثمرة العلمية لم تكن هي ما أريد من هاني. كنـت

أريد أن أستعيده بعد أن أفتقدته هذه الشهور. لم أكن فقط أريد أن أستعيده هو ذاته ككيان خارجي، بل كنت أريد أن أستعيده داخل نفسي، بعد أن كان قد خرج منها بعد الوضع ومجـيء علاء إلي الدنيا. وفي هذه المحاولات، كنت أسـتعيد هـاني علي نحو آخر، أكثر هدوءا وحنانا، وكأنني أريد أن أستعيده كأخ أكبر لعلاء، ابن آخر لي. لا أدري لماذا طفت إلي ذهني فجأة - بعد علاء - فكرة أن هاني طفل كبير، وأنه ربما كان في حاجة إلي أم، وأنني لم أستطع فيما مضى أن أحقق لـه هذا الاحتياج.

اتصلت به عدة مرات وعبرت عن رغبتي في زيارتـه في المنزل. وبعد تهرب ومماطلة قبل، فذهبت إليـه، ولكنـه كان متحفظا، حتى حين عبرت له عن هذه المشاعر الجديدة التي تنتابني نحوه. ابتسم ابتسامة صغيرة وأخذني في حضنه بهدوء وحياد أشعراني أنه لا أمل. فيما بعد عرفت من جـو القسم أن هاني قد دخل في علاقة جديدة. وكدت أجن.

أن تشاركني فيه زوجته أمر يمكن فهمه أو حتى قبولـه رغم قسوته التي عانيت منها الكثير. فأنا أيضا متزوجة، وإن لم أكن أحب زوجي. أما أن تأتي أخرى لتشاركني بل تأخـذ

مني نصيبي فيه فهذا ما لا يحتمل. ولماذا؟ هل هـي أجمـل مني أو أذكي أو أحن؟ ماذا يحدث في الـدنيا؟ مـا لهـؤلاء الرجال الأنذال الذين لا يرضيهم أي شيء. هل لأنه لم ينلني أبدا؟ هل المهم بالنسبة لهم هو الإيلاج بالذات؟ لقد أعطيتـه روحي وكل أجزاء جسدي التي أمتلكها. فرجـي لا أمتلكـه، الحفاظ عليه هو حق ربى على ولا أستطيع التفريط فيه. الآن ثديي الأيمن أيضا ليس ملكي، ملك الطفل الجميل علاء. فيما عدا ذلك كل شيء وخاصة روحي كانت وما تزال ملكا لـه، بل إنني أشعر بمزيد من الاحتياج إليـه، إلـي أن يتملكنـي وأتملكه.

سعيت بكل الطـرق لمعرفـة ذات الحسـب والنسـب المحبوبة الجديدة وعرفتها بالفعل. كانت فتاة مسـتهترة مـن طبقة أعلى، سافرة، شعرها جميل وملامح وجهها طفوليـة، لكنها "هيبي"، تلبس بنطلونات جينز وبلوزات مكشـوفة، ولا تهتم بالهندام والأناقة. ماذا أعجبه فيها وماذا يفعل معها؟ هل يلتقيان في منزله، ويفعلان مثلما كنا نفعل؟ لا شـك أنهمـا يفعلان أكثر... يصلان إلي ما يريده، ولا شك أنهـا أيضـا تريده... الفاجرة.

لم يعد علاء ولا أي شيء في الدنيا قادراً علي أن يهدئ ثورتي وغضبي. وكانت غيرتي تزداد يوما بعد يوم. وخاصة حين أتصل به في التليفون فيرد علي ببرود في البداية، ثـم يغلق في وجهي التليفون. حاولت زيارته فرفض، محتجأ بأن الناس في الكلية قد بدأت تعرف العلاقـة، وأن هـذا يهـدد مستقبلي ورسالتي. لم أقتنع. ذهبت إليه ذات يوم في البيـت، كان موجودا بالداخل ولم يخرج، خرجت واتصلت بـه مـن الشارع وهددته بأنه إذا لم يفتح لي الباب فسوف أحدث لـه فضيحة أمام الجيران. وفعلا فتح لي الباب وعلي عتبته رفع يده وبقوة صفعني علي وجهي صفعة قاسية: إيـاك تعتبـي البيت دا تاني. ،بالفعل لم أذهب إلي هذا البيت بعد ذلك أبدا، رغم ندمه واعتذاره ودعواته المتكررة لي للذهاب إليه. شيء ما قتل انتهى، لا أقصد حبي له، الذي لا أعرف إن كان مـا يزال حيا أم لا، أم أخذ شكلا آخر. اهتزت صـورتي أمـام نفسي بشكل فظيع، أهينت كرامتي وصرت ذليلة.

خرجت من العمارة تائهة لا أدري شيئا ولا إلـي أيـن أذهب. يستحيل أن أعود إلي البيت علي هذا النحو، لا أدري ماذا أفعل. ظللت أتجول في الشوارع وانتقل من شارع إلـى

شارع دون أن أدري أين أنا ولا ماذا أريد. توقف ذهني عن العمل،، وكذلك كل حواسي. ودون أن أدري وجدت نفسـي أمام بيت أبي، وهو يفتح الباب وأنا أرتمي في حضنه، وهـو المذهول الذي لم يفهم شيئا حاول تهدئتي. لم يعرف أننـي لا أريد أن أتكام ولا حتى أستطيع، كنت أريد فقط حضنه. بعـد قليل هدأت ارتعاشتى فى حضنه، واستطعت أن أنطـق: لـم أعد أستطيع الحياة مع محمود.

حاول أن يفهم مني ماذا حدث، ولكني لم أكن أملك مـا أجيبه به. فقد اخترعت هذه الكذبة لتبرير حالتي، والآن وقـد هدأت استطعت أن أقول له، أنني فقط كنت أحتاج إلي دعمه المعنوي. أما الباقي، فأنا أستطيع مواجهته. كان أبى يعـرف تفاصيل مشكلتى مع محمود ولكنه كان مصراً على رفـض الطلاق، ويرى إمكانية علاج كل شئ. لذلك لم أكن مضطرة لأواصل الكذبة.

من بعيد كانت أمي تبدو جالسة في غرفتها كشبح تشاهد التليفزيون، لم تستطع أن تتحرك ناحيتنا، كأني لست ابنتهـا التي تبكي. ومع ذلك فقد لمحت قلقا وتوترا فـي عضـلات وجهها حينما كانت تلتفت إلينا. فيما بعد أدركت أنهـا ربمـا

كانت قد وصلت إلي حد العجز عن الحركة فيما أنا مشغولة في سعادتي مع علاء أو في مأساتي مع هاني.

ذهبت إليها وقبلت خديها بآلية المنوم، وأطمئننت عليهـا بكلمات تقليدية ثم تركتها، أصر أبي علي أن أبقـي للغـذاء، ولكن لم تكن لدي شهية للطعام... كانت شهوتي قد اكتملـت للانتقام.

كيف يمكن لفتاة أن تنتقم من شخص تحبـه، أو علـى الأقل كانت، وهو في نفس الوقت يمسك بخناقها لأنه مشرف على رسالتها، في ظل نظام جامعي يعطـي كـل الحقـوق للأساتذة. هل تفضح علاقته بها أم بالأخرى؟ بعض الزملاء والزميلات يعرفون عنه سلوكه السيء وعلاقاتـه المتعـددة، التي لم تعرفها هي إلا بعد ذلك . ومع ذلك فهل يـأتى ذلـك بثمرة؟ هل تدعي عليه أنه اعتدى عليها؟ كيف تثبت ذلك؟ ثم ماذا ستجني من وراء ذلك؟ لن تستعيده بالقطع. ولن تستطيع أن تتم رسالتها معه أو مع غيره بعد ذلك. هل تلجـأ بشـكل ودي إلي أستاذتها لإزالته من الإشراف؟ هذه فكـرة جيـدة. ولكن كيف تبرر طلبها للأستاذة؟ ستضطر للاعتراف بكـل شيء، ثم من سيحل محله؟ لا أحد في القسم.

ماذا تفعل إذن لكي تنتقم؟ هل هي فعـلا قـادرة علـي الانتقام، هل هي شريرة إلي هذا الحد؟ إنه لم يعدها بشـيء على الإطلاق منذ البداية، ماذا تريد منه؟ تريد أمانا لا يعطيها إياه سواه. تريد أن تكون أما له ، تعطيه حنانها ودفئهـا. إذن عليها أن تسعى لاستعادته ولو بقليل من الشر. والأنثى لـن تعدم الوسيلة.

هل تظن أنه يمكن أن يغار عليها؟ حتى الآن لـم يكـن هناك مبرر لغيرته (سوى علاء!) فليس لها زوج ولا عشيق. كان وحده مركز الكون بالنسبة لها، وهذا هو سبب مأساتها. أنه يعرف أنها لا تستطيع الاستغناء عنه، وهي، حين فقدته، فقدت الدنيا كلها، وأصبحت علي وشك الجنون أو الانتحار.

تذكرت آنذاك مقالا كانت قد قرأته في صحيفة ما يقول كاتبه أن المنتحرين هم بشر كثفوا حياتهم حـول شـيء أو شخص. فإذا فقد هذا الشيء أو الشخص لم يعـد لوجـودهم مبرر، ولا يصبح أمامهم سوى إعدام هذا الوجود.

هل يستحق شخص ما، أيا كانت أهميتـه، أن يـدفعني للتخلي عن حياتي. أليست الحياة قادرة على تعويضي عنـه بآخر أو آخرين. ألا أمتلك أنا من القدرات ما يجعلني أخلـق

لحياتي معنى آخر، بل وأخلاق لنفسي حياة أخـ رى، اعتمـادا على ما لدى من قدرات وطاقات، وبالبشر الذين يحبونني. ألا أمتلك جسما جميلا وروحا شفافة نقية... ألا أمتلـك عـلاء؟ وصفاء ورضا وأمي وأبي الذين مهما كانوا بعيدين عني، فهم موجودون وقادرون علي مساعدتي في كثير مـن الأحيـان. والأصدقاء... آه الأصدقاء الذين ابتعدت عنهم تماما وأهملتهم خلال الفترة الماضية، كم كان بعضهم يحبنـي وأنـا التـي أهملتهم. علي أن أستعيد علاقتي بهم، بل حتى علي أن أسعى لتكوين صداقات جديدة.

بمن أبدأ... آه... حمدي زميل الدراسة الذي كان أكثـر من صديق. لا شك لدي أنه كان يحبني. كانت عيناه تقـولان ذلك. بل إن كلامه كان يحاول أن يصل إلى هذا التعبير، لولا صدي الدائم له... كنت أراه طفلاً، مثل كل الشباب في سنه. أليس هذا حكما جائراً. ظروفهم صعبة دون شك. لم يتعلموا كيف يعرفون أنفسهم - ألست كذلك أنا أيضا؟ لا نعرف مـن نحن ولا كيف نكون رأيا ولا أن نتخذ قرارا، هكذا تربينا في البيت أو في المدرسة، إلا من كانت له ظـروف اسـتثنائية. الآن أستطيع تذكر ملامح في حمدي تجعله من هؤلاء. لديـه

أشياء تميزه. أفكاره ، قصصه، هادى دائما، صغير الحجـم، لكنه وسيم وطيب. أحتاج إلي شخص طيب.

لكن أين هو الآن؟ لم أره منذ تخرجنا إلا مرات قليلـة. كان بائساً، يبحث عن عمل ولا يجد. ليس لديه تليفون، فهـو من أسرة فقيرة. كان ممن دخلوا القسم رغـم أنـه خـريج مدارس حكومية. كانوا قلة آنذاك وكنا نتندر على مسـتواهم في اللغة. لكن حمدي نجح خلال شهور قليلة أن يخرج مـن إطار تندرنا بالمجهود الذي كان يبذله وبذكائه الواضح. ومع ذلك فإنه لم يتفوق في الدراسة. فتخرج بجيد، ولم يكن مـن السهل أن يجد عملا في ظل أزمة البطالة التـي كانـت قـد طالت ملايين الشاب والفتيات.

أين أجده؟ آه تذكرت. آخر مرة كان قد قال لي إنه قـد تقدم لوظيفة أعلن عنها المركز الثقافي الأسباني "سيرفانتس"، أي وظيفة لا أذكر. موظف علاقات عامة أو منظم نـدوات وأنشطة ثقافية، شيء من هذا القبيل. يمكن الاتصال بالمركز فربما يكون قد قبل بالوظيفة.

لكن هل يصلح حمدي لإغاظة هاني! آه، سؤال قـذر، عدت إلى الأفكار المجنونة. ألم تقولي أنك لا بد أن تخرجـي

من إطار مركزية هاني في حياتك. حمدي يستحق أن يكـون صديقا بغض النظر عن هاني. حاولي أن تنسـيه، اتصـلي بحمدي وعودي إلى الاهتمام بعلاء الذي بدأ التوتر والقلـق يسيطران عليه بسبب إهمالك له: الوجبات لم تعد منتظمـة، توترك ينعكس عليه بشكل مباشر وغيـر مباشـر. أصـبح عصبيا كثير البكاء، وشديد التعلق بك. لا يريـد أن تضـعيه علي الأرض أو في السرير دقيقة واحدة. يعبر بكل أجـزاء جسمه عن خوفه من فقدك. آه أيتها المجنونة، كيف جـرؤت على إهماله إلى هذا الحد...

اتصلت بالمركز الثقافي الأسباني وسألت دون تردد إن كان حمدي عبد الرحمن موجودا؟ من حسن حظي - النـادر - أنه كان موجودا. أوصلوني به. كان مندهشا من اتصالي، ولم يفهم دوافعي:

- ازيك يا حمدي؟

- الحمد . وانت ازيك... ايه المفاجأة الجميلة دي!

- كنت باسأل عن ندوات المركز، قالوا لـي إن اللـي مسئول عنها هو حمدي عبد الرحمن. كانت مفاجـأة هايلـة

بالنسبة لي. مبروك. خدت الوظيفة.

- آه الحمد . أخيراً.

- مبسوط فيها؟

- مش وحشة. أحسن من مفيش. يمكن بعـد شـوية تكون أحسن.

- يعني إيه؟

- دلوقت موظف علاقات عامة. بس بيوعدوني إنهم يخلوني أشارك في تنظيم النشاط الثقافي بتاعهم بعد شوية.

- نشاط ايه اللي بيعملوه غير الندوات؟

- عروض سينما ومعارض فنون تشكيلية. وأحيانـا حفلات موسيقية وعروض فنية...حاجات كده يعني.

- هايل. وفيه إيه ليام دي؟

- فيه ندوة بكرة عن المؤرخين الجدد فـي أسـبانيا وموقفهم من المرحلة الأندلسية.

- مش معقول. دي في صلب موضوعي. مين هيتكلم فيها؟

- فيه أستاذ أسباني والمشرف المشـارك بتاعـك د. هاني. ازاي ما قل لكيش!

اضطربت قليلا من المغزي الكامن وراء سؤاله ونبرة صوته التي حملت بعض التهكم.

- ما شوفتوش من مدة. الحقيقـة أصـلي مشـغولة بالبيبي. مش تقول لي مبروك؟

- ا هو انت خلفت؟ مبروك. جبت إيه؟

- ولد جميل زي القمر. اسمه علاء. شقي قوي مـش مخليني أعمل حاجة في الدنيا غير إني أكون معاه.

- هايل. لازم شبهك!

- شوية. بس لسه ملامحه ما تكونتش قوي.

- ألف مبروك. ربنا يخليهو لك.

- مرسي يا حمدي. بأقول لك إيه. أنا هـاجي بكـرة أحضر الندوة. احجز لي بقي مكان جنبك زي ما كنت بتعمل زمان في المحاضرات. فاكر؟

- آه وا كان زمن جميل.O.K

أنهيت المكالمة وبعض السعادة يتسلل إلى نفسي. ليس فقط لأنني وجدت حمدي وسألتقي به غدا، بل وفي مواجهـة الأستاذ هاني مباشرة. سأضرب عصفورين بحجر واحـد.. برافو عليك يا بت يا هناء.

في اليوم التالي كنت في قمة التأنق والجمـال. لبسـت تاييراً جديداً لم يره هاني علي من قبل، وبلوزة مشجرة جميلة كانت عندي من أيام الكلية. كان حمدي بيتغزل فيها لما كنت بالبسها. كانوا لايقين على بعض جداً! وحطيت شوية مكيـاج خفيف يليق مع لون التايير والبلوزة. ورحت قبل ميعاد الندوة بربع ساعة.

لم يكن حمدي موجوداً بصالة الندوات. ولكـن وجـدت أماكن كثيرة خالية. فاخترت واحدا فـي المنتصـف علـى الطرف المواجه للافتة الصغيرة الموضوعة علـى المنصـة والمكتوب عليها اسم الدكتور هاني حماد. بعـد قليـل جـاء حمدي وما إن رآني حتى اتجه نحوي باهتمام واضح:

- آسف. انشغلت بترتيبات الندوة، لكن على كل حال فيه أماكن كثيرة. لكن لو حابه نقعد جنب بعض تعالي ورا علشان يمكن أتحرك كتير. ما تنسيش إن أنا موظف علاقات عامة.

استجبت له ورجعت إلي الكراسي الخلفية مع المحافظة علي نفس موقع الرؤية للافتة. وجلسنا نتحدث قليلا قبـل أن تبدأ الندوة التي تأخرت كالعادة حوالي ثلث الساعة. تـذكرنا أيام زمان حلوها ومرها. فقد كانت المرارة سمة دائمة فـي شخصية حمدي. لكني كنت حريصة على أن أجعل الحـديث مبهجاً وحميماً قدر الإمكان. فذكرته بنظراته لي وقصصـه الرومانسية التي كان يقرؤها علينا في الرحلات وكنت أشعر أنها تقرأ لي أنا بالذات. تعجب من كلامي:

- غريبة. عمري ما افتكرت إنك واخـده بالـك مـن الموضوع ده. عمره ما بان عليك.

- يابني إنت ما تعرفش الحاسة السادسة عنـد البنـات وبالذات لما يكون حد مهتم بيهم.

- أمال كنت مطنشة ليه؟

- كنت مشغولة بالمذاكرة. وبصراحة ما كنتش حاسـة إن زمايلنا ينفعوا للحب أو للجواز. كنت حاسة إنهم أطفال.

- عندك حق. معظمهم كده . بس البنات كمان كده..

- برضه معظمهم، مش كلهم. أنا مثلا طفلة؟

- طفلة بس كبيرة.

دخل الأساتذة. وكانت القاعة قد امتلأت صفوفها الأولى وبقيت الكراسي في الصفوف الخلفية، نصف مشغولة. وبدأت الندوة بتقديم من مدير المركز عن أهمية الموضوع، وأهمية المتحدثين. ثم أعطى الكلمة للأستاذ الأسباني، الذي تحـدث بلغة أسبانية بليغة ودقيقة موضحاً ملامح هذا الاتجاه الجديـد في التأريخ الأسباني المعاصر.

منذ بداية الندوة، كنت موزعة بين ثلاثة اهتمامات: كلام المتحدث، والنظر إلى هاني ومراقبة ملامح وجهه، والحديث مع حمدي الذي حرصت على أن يبدو أليفا وحميما. فكنـت أميل إليه وأنا أتحدث كما لو كنت أهمس له بكلام غرامي.

كان نظر هاني - حين جلس في مقعده - قـد تجـول ببطء في وجوه الحاضرين كأنه يبحث عن شخص بعينه. لا شك أنه يبحث عنها. ولكن حين وقع نظره علي توقف قليلا، ولمحت شبه ارتعاشة تحت شفته السفلي، ولكنه قطب جبينـه وانصرف عني، وإن كنت ألاحظ أنه لم ينصرف تماما. فقـد كان يعود إلى النظر إلينا، وخاصة حين كنا نتهامس! وكانت نظراته أقرب إلى نظرات اللوم الذي فسره - بعـد ذلـك -

بأننا كنا - بحديثنا - نخرق النظام ونشوش على المنصـة. لكن مدير الندوة لم يلتفت إلينا مرة واحدة، فقد كان منغمسـا في متابعة أفكار الأستاذ الأسباني، ثم بعد ذلك كلام الـ دكتور هاني الذي تحدث عن هذا الاتجاه التأريخي الجديد، من وجهة نظر العرب المعاصرين، أي ترحيبهم به مع الدعوة لمزيـد من الدراسات من هذا المنظور لأنها يمكن أن تكشـف عـن عناصر جديدة، في كل من الحضارتين الأسبانية ،العربيـة. وأشار إلى أن بعض طلابه يدرسون في هذا الاتجاه ولكنه لم يذكر اسمي فاغتظت.

كان حديثي مع حمدي أثناء النـدوة قـد تطـور، مـن تعليقات سريعة على كلام المتحدثين، مع اسـتمرار للحـوار الذي كان قد بدأ قبل الندوة، إلى التصريح بأن لدينا الكثير من الكلام الذي يمكن أن نقوله لبعضنا، وأننا فـي حاجـة إلـى مواصلة الكلام بعد الندوة. حـين انتهـي المتحـدثان مـن كلامهما، لم أكن متحمسة لسماع المناقشات، خاصة وأنـه لا يوجد المتخصصون الذين أعرفهم بين الجمهور، فاقترحـت على حمدي أن يدعوني علي فنجان شاي فوافـق وخرجنـا، وأنا أشعر بنظرات هاني تخترق ظهري من الخلف بغيظ..

أخذني حمدي إلى مقهي البستان بوسط المدينة. قال إنه معتاد على الذهاب إليه. وجدت فيـه الكثيـر مـن الأدبـاء والكتاب من أجيال مختلفة، بعضهم معروف، وبعضهم مـن الجيل الجديد، جيل حمدي الذي كان قد أخبرني أنه بدأ بالفعل في نشر بعض قصصه في المجلات، وأنه يعمل على إصدار مجموعة قصصية كاملة، لكنه لم يجد الناشر بعد، وخاصة أن معظم الناشرين أصبحوا يتقاضون مـن المـؤلفين -عكـس المألوف - تكلفة الطبع. ولما سـألته لمـاذا لا ينشـر فـي السلاسل التي تصدرها هيئة الكتاب أو هيئة قصور الثقافـة، قال إن المشرفين عليها شلليون، معظمهم لا يوثق في ذوقـه الفني. فكل يوم هناك عشرات المطبوعات سواء كانت شعراً أو قصة أو رواية، ومعظمها يخلو من القيمة الفنية.

جلسنا في الشارع الصغير المواجه للمقهى الذي بدا كأنه جزء منه، لأن الموائد والكراسي اصطفت على جانبيه.

بمجرد جلوسنا سألني حمدي عن موضوع –بصراحة- يؤرقه منذ اتصلت به أمس وهو موضوع علاقتي بالـدكتور هاني التي سمع عنها إشاعات كثيرة. قلت له كلاماً عاماً عن أن هاني كان يحاول معي ولكني رفضت منذ البداية ورجوته

- كصديق - أن يصدقني. ولكي أبعـده تمامـا عـن هـذا الموضوع، بدأت أحكي له حكاية زواجي، فهي الأهم، وهي المشكلة الكبيرة التي تهدد حياتي ولا أعرف لها حلا. وقلـت له أنك كصديق تستطيع أن تساعدني بمجرد أن تستمع إلـي، فأنا في حاجة إلي صديق طيب وحنون يمكن أن يسمعني.

صدق حمدي كلامي وشعر أن هذا تقريب واضح لـه. فبدت عليه بعض إمارات السعادة. ما يستطيع إظهاره منهـا. وأنا أيضا كنت سعيدة بعض الشيء لوجوده معـي. ولأننـي أغظت هاني بهدوء وبدون ضجة. وواصلت الحـديث مـع حمدي دون أن أقول له بالطبع مشكلتي الأساسية مع محمود. فقد أجلت الحديث عنها للمستقبل.

مع حمدي أخذت أتعرف على عالم جديد تماما بالنسـبة لي. كان واضحا أنه بعد أن تخرج من الجامعة، انخرط فـي شريحة جديدة من الشباب لهم عالم خـاص، يعيشـون مـع بعضهم البعض معظم الوقت تقريبا. شباب مـن الجنسـين، ومن طبقات مختلفة، ولكنهم يجتمعون حول الأدب. يكتبـون الشعر أو القصة أو الرواية أو الأغاني، ويقولـون لبعضـهم كلاما ويقرأون لبعضهم ما يكتبون، يجلسون علـى مقـاهي

وسط المدينة أو يلتقون في منازل من يملـك مـنهم منـزلا ويتقاسمون المال المتاح. يسمون أنفسهم جيـل التسـعينيات. وفهمت من حمدي أن بعض النقاد مـن الأجيـال السـابقة يرعاهم، والبعض الآخر يهاجمهم.

في البداية لم أكن أفهم لا كلامهم الملـىء بـالمفردات الجديدة علي والتي لم أكن أسمعها من غيرهم مثـل هرتلـة وروشنة، ولا كتابتهم. فيما بعد ومع تعدد لقاءاتي بهم سـواء على المقهى أو في الجلسات الخاصة مع الأصدقاء الحميمين لحمدي بدأت أفهم. لم أكن معجبة بكتابتهم لأنني كنت أحـب محمود درويش وأمل دنقل وأحمد فؤاد نجم ونجيب محفوظ، ومع ذلك اقتنعت بأن لهم الحق في أن يجدوا طريقة مختلفة في الكتابة، تستطيع أن تعبر عن حيـاتهم المختلفـة والتـي يعانون فيها أشياء لم تعشها الأجيال السابقة. ومع ذلـك لـم أقتنع بأن هذه هي الطريقة الأفضل لحياتهم ولكتابتهم.

كانت معاناة حمدي قاسية. تعب كثيـراً حتـى أكمـل تعليمه. كان يقوم بأعمال مختلفة أثناء الدراسة، وبعد الدراسة ترك الجماعة الاشتراكية التى كان ينتمى إليها عمل بعـض الوقت في السياحة، ولكـن اضـطرابها بسـبب ضـربات

الإرهابيين للسياح جعلته يفقد الشغل مرات عديدة. وواضـح أن أهله في الزقازيق لم يكونوا قادرين على مساعدته، بل هو الذي كان عليه أن يساعدهم، وكان - كما حكى لي - يفعـل كلما استطاع.

الآن بعد أن استقر عمله في المركز الثقافي الأسـباني، تحسنت أحواله المالية، واستطاع أن يحصل على غرفة بشقة مشتركة مع صديق له بشارع جانبي من شـوارع فيصـل. حينما زرته فيها لم يكن فخورا، ولم يكن مكسوفا منها، كانت قذرة وغير مرتبة وحينما حاولت أن أرتب بعض الأشـياء، رفض وقال إن لكل واحد نظامه حتى لـو بـدا فـي نظـر الآخرين فوضي.

كانت حالة حمدي تدعو إلى التعاطف معه. وكنت أنـا أيضاً فى حاجة إليه. حاول أن يتقرب منى بحميمية، وحاولت أنا أيضاً. احتضننى بهدوء وصـمت، دون أن يلجـأ إلـى إثارتى. استكنت إليه. كنت فى حاجة إلى هذا الحضن، ولكن ليس أكثر. ويبدو أنه أدرك ذلك. فلم يضايقنى، أكتفى-قبل أن نخرج- بأن قبلنى على جبهتى ووجنتى.

قبل هذه الزيارة وبعدها تعددت لقاءاتي مع حمدي سواء

علي مقهاه المفضل أو في الكازينوهات المتناثرة علي ضفتي النيل. وتكشفت لي خلال هذه اللقاءات أعماق جديدة لم أكـن أعرفها من قبل. وبدأت أصدق فعلاً أنه ليس طفلاً، فـالحزن العميق الكامن في عينيه يخفي عبئا ثقـيلا، لـيس الجانـب الشخصي هو الأساسي فيه، بل ما أسماه الأزمـة الفلسـفية، أزمة الوجود :العبث الذي يحيط بكل شيء. كل شيء فاقـد لهويته، وليس هناك يقين في أي شيء لا في داخل الإنسـان ولا في خارجه.

ولأول مرة أنتبه إلى مشكلتي الحقيقية التي لم أكن أفكر فيها من قبل، وأنا التي تعمل في ميدان الحضـارة والفلسـفة والهوية. انتبهت أنني أعيش حياتي كما يعيش حمدي وجيلـه رغم أنني لست منهم، ورغم أن ظروفي مختلفـة. اكتشـفت أنني ممزقة داخل نفسي وفي علاقاتي مـع الآخـرين. وأن الآخرين كذلك ضائعون، حتى من الأجيال الأكبر. عاد أبـي من السعودية ومعه المال الذي أراد، ولكن ماذا يفعـل بـه وبحياته كلها؟ لا شئء. خالد أخذ زوجته وذهب إلي الكويت يعمل هناك ويعيش، وحين يأتي أحيانا في الإجازات، أجده قد تغير كثيرا. حتى خفة دمه التي كنت أظن أنها غريزة فيـه،

اختفت. صار متجهم الوجه محني الكتفـين، قليـل الكـلام. "صفاء" هي الأخرى في السعودية مع زوجهـا، ورغـم أن شهورا قليلة لم تنقض على الزواج فهي تكـاد تنفصـل. لا تستطيع الحياة في ذلك المجتمع، ولا مع زوجها الأناني الذي لا يهتم بها. تقول أنها تريد أن تعود في أسرع وقت.

وأنا بين محمود وعلاء وهاني وحمدي. محمـود فـي حاله لا يهتم بي بعد كل ما حدث. علاء عدت أرعاه بكل ما أستطيع من حب وحنان ولكن أنا نفسي في حاجة إلـى هـذا الحب والحنان، ومع ذلك فهو ينمو ويكبر. هاني تبدو علاقته الجديدة قد انتهت أو علي وشك الانتهاء لأنـه اتصـل بـي واعتذر عما فعله بي منذ شهور. يبدو ضائعا، وأنا لا أحتمل شخصا ضائعا. لأنني نفسي في حاجة إلى قوة. وحمدي رغم أنه ليس قويا إلا أنه على الأقل صادق في معاناتـه، وقـادر علي أن يتأملها وأن يحاول مواجهتها. ثم إنه لا يطلب منـي شيئا. بصراحة هو شخص لذيذ هادئ لطيف. ولكنه عصـبي أحيانا يثور لأتفه الأشياء ولا يهدأ إلا بعد مدة، وفـي هـذه الحالة لا أعرف كيف أتعامل معه، لأن أي شـئ لا يفيـد. تعلمت مع الوقت أن أصبر وأبتعد وأنا على ثقة أنه سـوف

يهدأ، ويعود وديعا رقيقاً.

أعطاني قصصه التي نشرت. وكان يقرأ علي - أحيانا - بعض القصص التي لم تنشر بعد، أو التي يريد نشرها. لم أكن أرى فيها قصة بالمعنى الذي تعلمته عن القصة، ومع ذلك فقد كان بعضها يعجبني. الاتجاه العام لكتابته كان يشعرني بنفسي، وأنه يمثل حالة تشتتي وضياعي. لم أكن أستطيع أن أربط الأجزاء ببعضها لأكمل حدوتة، وكان هو يقول إن ذلك ليس مهما لأنه لا يكتب حدوتة، وإنما يكتب حالة، أو مشهد مثل زملائه من الشعراء الذين يكتبون قصيدة الحالة أو قصيدة تفاصيل الحياة اليومية.

أشعر - مع الوقت - أنني أقترب من حمدي نفسياً، وهو كذلك. لكني لا أشعر أن هذا الاقتراب، يعني الحب. فقط أحتاج إلى كلامه، إلى رؤيته. ربما لمسة صغيرة من اليد، أو نظرة حنونة في العينين، أو قبلة على الخدين مع حضن أخوي خفيف. كان شيء هادئ ورقيق يتكون بيننا. وهذا ساعدني كثيرا على الخروج من أزمتي مع هاني، بحيث أنني وجدت نفسي - مع الوقت - أستعيد توازني وأستعيد اهتمامي القديم بعلاء، بل حتى وجدت نفسي أبدأ بجدية في

العمل في رسالة الماجستير، دون أن أكون في حاجـة إلـي رؤية هاني إلا بين الحين والحين، وفي الكلية.

في هذه المقابلات لم يعد هاني إلي ما كان بيننـا، ولـم أعد أنا كذلك. كنت أعرض عليه ما أقوم به في البحث وكان ينصح ويوجه بلطف ولكن ليس أكثر من ذلك. ومع الوقـت وجدت ذلك يغيظني - رغم أنه جعلنـي أنجـز جيـدا فـي الدراسة - وبدأت أتوجس من موقفه وأخمن ما وراءه، ومع ذلك، فقد استمر الحال علي ما هو عليه حتى كان ذلك المساء في بداية الربيع.

كنت عائدة من زيارة عمتي التي لا أزورها إلا لمامـا في المعادي، ومعى علاء يناغيني، حين لمحت من بعيد شابا وشابة يتعانقان بين الأشجار الكثيفة على رصـيف شـارع معتم. أثارني هذا المشهد جدا بحيث أنني تصورت أن هـذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها هذا الشيء الذي يسـمونه الحب. كان مشهد الحبيبين المندمجين المبتعدين عـن العـالم آسرا. يقول إن هناك أشياء أجمل بكثير ممـا عشـته فـي حياتي. وأن من حقي أن أعيشها.

اضطربت أموري بعد هـذه اللحظـة. وتجولـت فـي

الشوارع طويلا حتى بدأ علاء ينام على كتفى. فعـدت إلـى البيت وأنمته فى سريره وجلست أفكر فيمن حولي. من يمكن أن يعطيني هذا الحق؟ فكرت في حمدي، ولكني لـم أتخيلـه يقبلني أو يحتضنني بقوة وعنف، فلم أجد سوي هاني. لم يكن محمود في البيت. اتصلت بهاني فلم يرد أحد. فانتابتني حالة إصرار علي أن أجده، وظللت أتصل به حتى رد علي أخيراً بعد منتصف الليل.

بدا مندهشاً ومرحباً في نفس الوقت من لهجتي الوديـة، وكأنه التقط الرسالة التي حملتها نبرات صوتي المرتعشة.

سألني مالك؟ قلت مافيش. واحشني بس.

- وانت كمان. أخبارك إيه؟

- باقولك واحشني.

- طب تحبي تيجي؟

- آجي فين دلوقت؟

- البيت.

- لا صعب. تعالى نتقابل برة. آه. بس علاء هأعمل فيه

إيه. خلينا نتكلم علي التليفون أحسن. أخبارك إيه يا وحش؟

- إنت اللي بايخة.

كانت هذه هي البداية لأمتع حديث تليفوني عشته فـي حياتي حتى ذلك الوقت. أخذ كلام هـاني يدغـدغ حواسـي ويخلع بألفاظه ونبرات صوته ثيابي قطعـة قطعـة، دون أن أستطيع أدنى مقاومة، بل بلذة وخدر جميلين، حتى وجـدت نفسي، عارية تماما، وأنا أداعب أعضائي وصوت أنفاسـه يلهب وجهي، قبل أن أنام هادئة وديعة بجوار علاء، الـذي كان قد استيقظ ، ودون أن أنتبه أعطيته ثديه المفضل فالتقمه وأخذ يمتصه بهدوء حتى نام.

عادت صفاء بالفعل. ورغم أن زوجها كان في إجـازة، إلا أنه فضل البقاء في السعودية ليعمل عملا إضافيا ويكنـز مزيداً من المال. عادت وفي بطنها جنين وكانت منهارة مـن الوضع هناك. فهي لا تعمل، وليس لديها ما تفعله في البيت، والمشتريات - المتعة الوحيدة المتاحة هنـاك - لا تسـتطيع تحقيقها بسبب بخل الزوج. وجاء الحمل رغم أنفها، ورغـم أنها قد أصبحت في الشهر السادس، فما زالـت تفكـر فـي الإجهاض. ويبدو أن أبي شعر بذلك فرغم أنها- بالتأكيد - لم

تقل له ذلك، فقد وجدته ذات يوم يعنفها بشدة لأنها تريـد أن تقتل نفسا خلقها ا .

كانت عودة صفاء، رغم حالتها هذه، بل وربما بسببها، مصدر سعادة لي، لأنها أكدت وجهة نظري - التي أصبحت يقينا - في سوء الزواج والأزواج. بالإضافة إلى ذلك، فـإن وجودها كان مصدر أمان لي وأنا أستعيد علاقتـي بهـاني، وكنت قد بدأت أحكي لها عنه، وكانت مرحبة. مع اسـتمرار صداقتي مع حمدي رغم أن لقاءاتنا قلت، وبدأ يشوبها بعض التوتر، لأنه كان - فيما يبدو لي -قد بدأ يتصور أنها علاقة حب.

كان من اللاطف بحيث أنه لم يحدثني مباشرة فـي هـذا الأمر. ولكن نظرات عينيه كانـت - بحنانهـا وحزنهـا - تلومانى علي بعدي عنه، وكنت أنا ألمح إلى علاقاته المتعددة بالشابات رغم أنني كنت أعرف أنها مجرد زمالة في الكتابة أو صداقة، وإن كنت لا أدري مفهوم هذا الجيل للصداقة بين الولد والبنت. على كل حال لم أكن أري في سـلوكي مـا يجعله يلومني، لم أعده بشيء، ولعلي لا أستطيع أن أعطيـه أكثر مما أعطيه الآن.

وصلت آنذاك إلي حالة توازن معقولة تسمح لي بسرعة الإنجاز في رسالتي، وهو ما حدث بالفعل. ففي خلال سنتين من التسجيل كنت قد انتهيت منها بالفعل، كتب هانى تعليقـاً ختامياً على الكتابة الأولى للرسالة، بعد الملاحظات الجزئيـة والخاصة بكل فصل على حدة. قال فيه:

" من الواضح أنك باحثة ذكية وتمتلكين الأدوات الكافية لإعداد رسالة ماجستير. وأنك اطلعت على المراجع اللازمة لموضوعك. ولكن المشكلة الأساسية الواضـحة، هـى فـى طبيعة تفكيرك نفسه. واضح أن لديك انفصاماً فى الشخصية يمنعك من أن تكونى رأياً علمياً متسقاً ومتكاملاً.

هناك إعجاب شديد بما أنجزه العـرب فـى الأنـدلس. وتجاهل تام لكونهم غزاة، وتعتبرين أن اسـترداد الإسـبان لبلادهم جريمة فى حق العرب. ورغم أننى لا أوافقك علـى ذلك، فلأسلم معك. المشكلة أنك- فى نفس الوقت- تعبـرين عن الانبهار الشديد بالفكر الإسبانى المعاصر، ولا تستطيعين أن تعترضى أو تناقشى أية فكرة من الأفكار التى يطرحهـا المؤرخون الجدد لمجرد أنهم إسبان، بحجة أنهـم ينصـفون العرب، فى حين أنك لو تأملت جيداً وراء أفكارهم لاكتشفت

أن لهم فى النهاية مصالح يسعون إلى تحقيقها.

تناقض غريب آخر فى أفكارك بين الإشادة العالية بنمط الحياة الباذخة التى عاشها ملوك العرب فى الأندلس، وبمـا فيها من مباذل وإباحية، وبين اعتبارك لهم ممثلين للإسـلام ورافعين لشعاراته، ومتمسكين بشرع ا .

هذه التناقضات، وغيرها تجدينها فى مواقعها فى فصول الرسالة تشير إلى أن هناك مشـكلة فـى تكوينـك الفكـرى والمنهجى. تحكمين على الأشياء بعواطفك أكثر من عقلـك، ولديك مسلمات جاهزة متناقضة.

ولكن أظن أن ذلك يتصل بما سبق أن قلتـه لـك عـن احتياجاتك المتناقضة".

انزعجت إلى أقصى درجة من هذا التعليق، ليس فقـط لأنه لمس وتراً حساساً بداخلى كنت قد بدأت انتبه إليه بوعى وأحاول تجاهله فيما يختص بتفكيرى ومشاكلى النفسية، ولكن لأنه سيسبب لى مشاكل علمية لم أكن قادرة على حلها فـى ذلك الوقت. والأهم من ذلك أنه جاء فى وقت كنا فيه علـى وفاق وتفاهم على المستوى العاطفى. حاولت أن أفسر رأيـه

باعتباره محاولة للتخاص منى، أو شئ مـن هـذا القبيـل، وعبرت له عن ذلك، فأكد أنه مازال قادراً على الفصل بـين العمل والصداقة. وأرشدنى إلى الطريقة التى أمكننى بها حل المشكلات الأساسية التى يمكن حلها الآن، وتأجيل المستحيل منها إلى ما بعد.

خلال شهرين كنت قد انتهيت من إجراء التعديلات التى طلبها هانى، وكان راضيا عنها، وكذلك أستاذتي، التي لـم ترني سوي ثلاث أو أربع مرات أثناء إعداد الرسالة. أثنـاء طباعتي للرسالة ثم المناقشة وما بعد المناقشة التي حصـلت فيها علي تقدير ممتاز، كنت أسمع التلسين يزداد بين زملائي وحتى أساتذتي في القسم، بل إن هذا التلسـين وصـل إلـي خارج الجامعة، لأني سمعته من حمدي:

يقولون إنك أنهيت رسالتك بسرعة لأن الدكتور هـاني ساعدك كثيراً.

وأنا لم أنف أبدا هذه المساعدة. بل لقد عبرت عن ذلـك بقوة في تقديمي للرسالة أثناء المناقشة. قلت أنه لولا مشاركته في الإشراف ومساعدته العلمية والإنسانية لمـا كـان لهـذه الرسالة أن تنجز. ولكن هذا شيء وما يقصدونه شيء آخر.

إنه لم يضع قلمه في الرسالة إلا بالملاحظات والتعديلات، أما أنه كتب لي الرسالة؟ كان وجوده الإنساني والعاطفي، وهـذا طبعا لم أقله، أهم داعم لي علي الكتابة. على كل حال لم أهتم بالتلسين، لأني كنت سعيدة بالانتهاء من الرسـالة. وبـدأت أسعى للحصول علي البعثة للسـفر إلـي أسـبانيا لإعـداد الدكتوراه. أخيرا سيتحقق حلمي بالسفر إلي أسبانيا.

ولكن الإجراءات الروتينية كانت طويلة ومعقـدة إلـى درجة أنني شعرت أحيانا، أن هذا الحلم الذي توهمت أنه بين قوسين أو أدنى، هو حلم مسـتحيل. وقـد اسـتمرت هـذه الإجراءات أكثر من سنة بين أروقـة البعثـات والجامعـة والمستشار الثقافي في مدريد والجامعات الأسبانية. أخذ هـذا معظم وقتي. أما بقية الوقت فكنت أقضيه مع علاء وصـفاء وهاني وحمدي. محمود لم يعد مهما. فقد كانت نيتي - وقـد وافق على سفر علاء معي - أنني بمجـرد الخـروج مـن مصر، سأطلب الطلاق.

العلاقة الوحيدة التي كانت صافية، وتبدو وكأنها أبديـة، كانت علاقتي بصفاء. أما علاقتي بحمدي - رغـم تواصـل لقاءاتنا - فقد كان واضحاً وأنها على وشـك الانتهـاء بعـد

تصديقه للإشاعة، وبعد علمه أنني على وشك السفر. ويبـدو أنه كان أيضا على وشك الدخول في علاقة جديدة وإن كنت أشك أنه يمكن أن يحب غيري علي الأقل حتى ذلك الوقت.

مع هاني كنت مضطربة بين امتناني لوجوده معي، دون أن يغالي في طلباته - حتى انتهيت من الرسـالة، وأيضـا مشاعر الحب التي أكنها له والغيرة كلما جاءت زوجته، وبين رغبتي في السفر وتحقيق حلمي وطموحي. ولكن عزائي كما كنت أقول له إننا سنلتقي في أسبانيا الجميلـة، وأيضـا فـي زياراتي لمصر. ولم يكن يبدو قلقا وإن كان قـد بـدأ يأخـذ الاحتياطات لحماية نفسه. وكان هذا يشعرني أحيانا أنني قـد توغلت بداخله أكثر مما يعلن وأنه يحمي نفسه من افتقاد كبير لي حين أسافر.

فوجئت بموت أمي. كان المرض قد اشتد عليهـا فـي الأيام الأخيرة وأخبروني أنها في المستشفى لكني لم أقدر أنها قد وصلت إلى حد الموت. فلم أذهب لزيارتهـا فـي ظـل مشاغلي وهمومي. حين علمت بخبر الموت سقطت مغشـيا علي. كنت في بيتي، لم أفق إلا على يد محمود وهو يـرش علي ماء الكولونيا محاولا إيقاظي. ذهبت إلي بيت أبي شـبه

منومة ، لم أستطع رؤيتها، لأني لم أكن أستطيع أتخيل أصلا أنها ممكن أن تصمت إلى الأبد..

ظللت كذلك طوال أيام العزاء الثلاثة. أتلقى العزاء فـي صمت دون أن تسقط مني دمعة واحدة. عكس صفاء التـي كانت منهارة من البكاء. كانت معهم في المستشفي وشاهدت أمها وهي تموت. كنت مثل أبي صمت ثقيل ودائم. لم نتبادل الحديث بيننا، بينما كانت المعزيات يثرثرن كعادتهن، بل إن بعضهن لم يتورع عن الاتصال بالموبايل ببيوتهن للاطمئنان على الأطفال.

يوم الخميس ذهبنا إلى المقبرة.. كانت المرة الأولى التي أذهب إلى هناك، مدينة كاملة بجوار المقطم، يعيش فيها ناس عيشة كاملة. في مقبرتنا كانت تقيم أسرة في الحجـرة التـي كانت مخصصة لاستقبال أهل الميت. ما زالوا يصرون علي استخدامها هكذا رغم أنها مليئة بأثاثهم. لكن بها ثلاث كنبات بلدي في ركن، يمكن الجلوس عليها.

كان شعوري غريبا وأنا في هذا الجو. تأكدت يومها فقط أنني فقدت أمي إلى الأبد، وأنها ترقد تحت هذا التراب جسداً بلا روح، لا شجار ولا حنان مكتوم، لا أمومة. لم تعد لـي

أم. مشاعر الحزن والألم والإحساس بالذنب لأني جافيتها إلى درجة أنني لم أذهب لزيارتها وهي تموت.

بعد العودة من المقابر انفجرت في البكاء وصرخت في وجه أبي وفي وجه صفاء، كيف لم يخبروني أنهـا تمـوت. كيف لم ينبهوني إلى أنني مجنونة، كيف يتركونني أعيش في هذا العذاب. كانوا أكثر تماسكا مني فلم يردوا علي بشـيء، وكانت نظراتهم واضحة تشي باللوم. ومع ذلك لم ينطقوا.

كان رضا أكثرنا قرباً من أمه. وقد أصـابته الواقعـة بصدمة عصبية ألزمته غرفته. أتينا له بالطبيب ولكنـه لـم يتعاف سريعا، ظل لا يفارق غرفته. لم يشارك في الجنـازة ولا العزاء ولا زيارة المقابر.

بعد أن هدأني محمود من ثورتي دخلت إلى رضـا فـي الغرفة. كان يستلقي على السرير شاردا شاحبا، فهو لم يتناول الطعام منذ ماتت، بالقوة كان يجبـر علـى شـرب بعـض العصائر. حاولت الحديث معه، أن أخرجه من حالته. حاولت أن أعقلن الأمر له ولنفسي، ويبدو أنني نجحـت قلـيلا، فقـد استطعنا - لأول مرة - من سنوات طويلة، قبـل أن يسـافر أبي، أن نتناول نحن الأربعة وجبة العشاء معا، لكن دون أمي.

في المنام رأيت أمي التي لم أرها منـذ شـهور. كـان وجهها شاحباً معذباً، كانت تسير بتثاقل في اتجاه بعيد عنـي، ولم تنظر إلي. ناديت عليها مرات، رفضـت أن تجيـب أو حتى تلتفت إلي، بل إنها أشاحت بيدها أن أتركونى بحـالي. استيقظت فزعة ولم أستطع تفسير الحلم. لماذا هي في هـذه الحالة. طبعا هي غاضبة مني. معها حق. لكن لمـاذا هـي معذبة وحزينة ومرهقة.

لم أشك لحظة في أن لها الجنة. فقد كانت فـي النهايـة ست طيبة، لم تفعل شيئا يغضب ربنا. وما فعلته فينـا، أنـا وأبي، لم يكن شرا، كانت وجهة نظرها في الحيـاة وكيـف ينبغي أن تعاش، وهذا حقها أيضا. طالما أنها لم تعتد علـى حقوق ربنا علينا، صحيح أنها لم تكن تصلي بانتظام، لكن ا غفور رحيم.

طوال الأيام التالية انتظمت في قراءة القرآن، وحدي أو مع أبي وصفاء ونهديه إليها داعين ا أن يغفر لها. وطوال الوقت كانت صورها تتراءى لي ومشاهد من علاقتي بهـا، حلوها القليل ومرها الكثير. ومع الوقت بدأت أستعيد توازني وأشعر براحة خفية تتسلل إلى نفسي، مع بعـض الشـعور

بالمسئولية إزاء هذا البيت الذي أصبح يحتاجني. فرغم وجود صفاء، وقدرتها علي رعاية رضا وبابا، فقد كنت أشعر أنني البنت الكبيرة، وأن علي تعويض أمي في غيابها. كان هـذا يشعرني أنني أستطيع التخلص من إحساسي بالذنب. ولـذلك فرغم عودتي إلى بيتي، فقد حرصت على التردد دائما علـى بيت أبي والمساعدة في إعداد الوجبات، والاهتمـام برضـا الذي أخذت حالته في التحسن تدريجيا ولكنه خرج من الأزمة بشخصية مختلفة تماما، فقد المرح وطيش الشـباب. صـار حزينا ومهموما وقليل الحركة.

مع استمرار زيارات العزاء، والخمسان والأربعين التى حاول أبى أن يرفضها باعتبارها عادات فرعونية لكنه استسلم لضغط المحيطين، تعودنا على الوضع وبدأت الحياة تعود إلى سيرتها الطبيعية. ولكني أنا لم أعد إلى نفسي. شعرت أننـي تغيرت كثيرا. فقدت أشياء، فقدت حنان الأم الذي لـم تكـن تعرف كيف تعبر عنه. وفقدت إحساسي القديم بالحنق عليهـا واكتشفت شعورا بمأساوية الحياة. ولكن المسئولية الجديـدة التي اكتسبتها، جعلتني أكثر صلابة وقدرة علي إدارة أمـور الحياة اليومية، بل وربما القدرة علي معرفة نفسي على نحو

أفضل وأعمق... معرفة صـلبة ولكنهـا مأسـاوية. وبهـذا الشعور عدت أنتبه إلى حياتي وأواصل ما انقطع، عدت إلى ترتيبات السفر التي كنت قد أهملتها. فقد كانت ملاذاً ومهرباً.

كانت فترة الإعداد للسفر فرصة غريبة للإيغـال فـي عمق مشكلتي كما فهمت بعد ذلك. كنـت سـعيدة بالسـفر، لدرجة أنني كما قلت كنت أصفي علاقاتي مع الآخرين. لكن بمعنى ما كنت أشعر أنني مطرودة من وطني، شـعور زاد بعد أن فقدت أمي، وأنني ذاهبة لأبحث عن وطني الجميل في ماض انتهي ولن يعود..

كانت الإجراءات الروتينية التي لم أعرفها أبدا قبل ذلك حتى عندما عينت معيدة في الجامعة، تقول أن هذا الجهـاز الإداري خلق خصيصـا لإهـدار وقـت النـاس وتعطيـل مصالحهم، وقتل طموحاتهم إن أمكن.

وكانت الجماعات الإسلامية أو الإرهابية كمـا تسـميها أجهزة الإعلام تمارس قتلا لجماعات من السياح وأفراد مـن الحكومة أو المثقفين. قتلوا فرج فودة وهددوا بالقتل نصر حامد أبو زيد الذي درس لي بالجامعة ولم أعرف عنه أنـه ملحـد، رغم أنني لم أقرأ كتبه، بعد أن حكمت المحكمة بارتداده.

وفي المقابل كانت أجهزة الإعلام وأجهزة البوليس تشن حملات مكثفة علي هؤلاء الإرهـابيين وتقـتلهم بالعشـرات وتسجن منهم المئات كل يوم. كان جو المدينة مرعبا وخانقا بكماشات البوليس عند مداخل الكباري ومخارجها وفي كـل مكان.

وكان المثقفون، كما كان حمدي يحكـي لـي، يبيعـون أنفسهم برخص التراب للحكومة كي تستخدمهم في مواجهـة الإرهاب. كان رأيه أن الحكومة هي المسئولة عن الإرهـاب لأنها هي التي تخلق العنف في المجتمع بزيادة العاطلين عن العمل، وغياب المشروع القـومي الـذي يجـذب الشـباب ويشعرهم أنهم مواطنون في وطن لهم عليه حقوق وعليه لهم واجبات. وكان يرى أن هذا التوجه من المثقفين سقطة سوف يحاسبهم عليها التاريخ. لأنهم يتخلون في أصعب المراحـل عن دورهم في قيادة شعبهم لمعرفة الطريق الصحيح للخروج من الأزمة.

ورغم أنني كنت أتهكم عليه وأسأله: هل تعرفون أنـتم المثقفون فعلا الطريق الصحيح للخروج من الأزمة، وحينها كان يصمت صمتا حزينا، رغم ذلك فقد كنت أقـرب إلـى

الاقتناع بكلامه. وكان هو ما يزال لديه بعض الأمل. أما أنا فقد كنت قد وصلت إلى درجة اليأس من أي إصلاح لحال البلد، بالإضافة طبعا إلى يأسي من إصلاح حالي أنا بداخلها.

أحيانا كنت أداعبه وأقول له: ما تيجي معايا إسبانيا، نعيش في هوا نضيف وجو لذيذ، وأنت تتعلم أدب إسباني كويس وأنا أخلص دكتوراه، وممكن نتجوز هناك بعد ما انفصل عن محمود.

وكان - دون أن ينتبه إلى نبرة المداعبة - يهز رأسه آسفا: أنا لا أصلح إلا للحياة هنا بكل قسوتها ومرارتها. لن أستطيع أن أكتب حرفا إذا خرجت من هذا المأزق.

كان يتحدث بصدق وحزن عميقين، جعلاني أتأثر بكلامه وأدرك إلى أى مدى يعيش فى أزمة حقيقية بهذا الوعى الشقى كما وصفه هو نفسه. بمعنى ما حمدت ا أننى لا أمتلك هذا الوعى الذى يجعلنى أعيش تعيسة على هذا النحو ولكنى تساءلت مع نفسى: أيهما أفضل أن يعيش الإنسان مأساته وهو لا يعرفها، لا يعرف جذورها ولا ملامحها. أم يعيشها وهو واع بها، ومدرك أنها مأساة لا حل لها.

قبل أن أغادر راودنى إحساس حاد بـأن حمـدى فـى طريقه إلى الموت وأننى لن أراه بعد ذلـك. ودفعنـى هـذا الإحساس إلى نوع من الشعور بالذنب نحوه، ونحو نفسـى. فكرت أننى بهيافتى أضعت على نفسى الفرصـة الحقيقيـة الوحيدة للحب، مع هذا الإنسان الجميل، والذى تأكـدت أنـه يحبنى حقاً. ربما كنت رغم محدودية أفكارى، قـادرة علـى مساعدته فى الخروج من مأزقه بحنانى وأمومتى وأنـوثتى. وفى تأملاتى مع نفسى، قلت أنه أجمل من أن يكون لى.

على كل حال، كان الأوان قد فات. انتهـت إجـراءات السفر، وحزمت حقائبى وتوجهت إلى مصيرى وأنا فى حالة مركبة من المشاعر المتناقضة:

سعادة ورهبة، شعور بالتحرر من قيود كثيرة تكبلنـى، وإحساس بفقد أشخاص وأماكن، وخـوف مـن مجهـول لا أعرف ماذا يحمله لى وإن كـان إحساسـى أنـه يمكـن أن يدمرنى، وأن يفجر تناقضاتى التى نجحت فى إخفائها حتـى الآن.

كانت الصدمة قاسية حين خرجت مـن بوابـة مطـار مدريد. لم يكن بانتظاري أحد، ولذلك كان لا بد مـن أخـذ

تاكسي. توجهت إلي التاكسي الأقرب لي فوقفت بجواره مـع حقائبي وعلاء. ورآني السائق الذي كان واقفا أمام سـيارته دون أن يتحرك لمدة دقائق، ودون أن يبدي أي إشـارة مـع نظرات غريبة تحمل مزيجاً من الاحتقار والتأنيب. ارتبكـت ولم أفهم ولم أدر ماذا فعلت حتى أكون في هذا الموقف، ولم أدر أيضا ماذا أفعل وتحركت عيناي يمينا ويسـارا أبحـث عمن يساعدني، فقادتني عيناي إلي طابور مـن التاكسـيات تصطف وراء بعضها البعض، فأدركت علي الفور أنني من العالم الثالث، وأن هنا شيئا لا نعرفه اسمه النظام. وتأكـدت طول الوقت - بعد ذلك - أن هذا النظام هو إله هذا العـالم الجديد، الذي يحكم كل شيء علي الأقل ظاهريا.

كنت قد حجزت - مـن القـاهرة - غرفـة بالمدينـة الجامعية. فتوجهت إليها فورا. ولكن مـا إن وقفـت أمـام الموظفة في مكتب الاستعلامات حتى أصبت بالهلع الأكبـر. حينما رأت علاء قالت إنه ليس لي الحق في الإقامة بالمدينة الجامعية مع طفل. ولم أفهم ولم أكن قادرة علي الفهم في ذلك الوقت، لأنني لم أكن أدري كيف أتصرف قالت الموظفة أنه كان على أن أذكر فى طلب الحجز أن معـى طفـلاً. ولـم

استطع التذكر فى تلك اللحظة إذا كنت قد ذكرت ذلك بالفعل أم أن هذا الأمر فاتنى.

قلت لها أن الحجز قد تم عبر التليفون، وأن القنصـلية الإسبانية فى مصر تعرف لأنها أعطتنى تأشيرة دخول لـى وللطفل.

من حسن الحظ أن الموظفة كانـت طيبـة فنصـحتني بالتوجه إلي بيت للطالبات، قالت أنه قـد يقبلنـي والطفـل. حملت حقائبي، وسرت مع علاء الذي أصبح الآن قادرا علي السير وحده، أربع سنوات. وأخذنا تاكسيا آخـر إلـي بيـت الطالبات، الذي رفض أيضا قبولي، وإن كان قد سـمح لـي بالإقامة لمدة أسبوع حتى أستطيع الحصـول علـي مسـكن خاص. فليس مسموحا - في البيوت الجامعية- بوجود طفل، أو زوج.

خلال هذا الأسبوع توالت علي المدهشات. كثفت همـي في الحصول على مسكن، وكان أمامي عائقان، أنني لسـت أوربية وأن لدي طفل. بدأت تصوراتي عن إنسانية الإسـبان تتبخر. وبدأت أكتشف عالما عنصريا مثل بقية المجتمعـات الأوربية التي سمعت كثيـرا عـن عنصـريتها. وزاد مـن

مشكلتي أنني كنت قد أصررت علـى عـدم التنـازل عـن الحجاب. لم أكن أدري أنه سيجعلني أعجوبة كلما سـرت أو تواجدت بين جماعة. فيما بعد بدأت في التنازل عنه تدريجيا.

كان ضماني الوحيد الذي ساعدني في الحصول علـي الاستوديو الصغير الذي أقيم فيه الآن، أننـي لسـت طالبـة عمل، بل طالبة علم.. كان معي ما يفيد أن جامعة الكمبلتنثيا قد قبلتني للتسجيل لدرجة الدكتوراه، وأنني مبعوثـة بـدخل ثابت من الحكومة المصرية.

حصلت أخيرا علي الاستوديو الذي أدفع فيه أكثر من ثلث دخلي، وبدأت أرتب أمور حياتي. فذهبت إلي الجامعـة وأثبت وجودي إدارياً. ثم بدأت أبحث عن الأستاذ كـورينتى المستشرق المعروف والذي كنت قد راسلته مـن القـاهرة، وقبل أن أعمل معه، واقترح علي أن أعمـق زاويـة فـي الموضوع الذي درسته في الماجستير، وفي نفس المرحلة.

كنت سعيدة بالموضوع وبأنني سأعمل مع هذا الأسـتاذ العلامة المعروف والذي حسدني زملائي في القاهرة عليـه. ولكن الأقدار (استغفر ا العظيم) كانت تقف في طريقي منذ جئت. اكتشفت أنه قبل مجيئى بعدة أشهر حدث خلاف حـاد

بين الأستاذ وبقية زملائه أدى إلى استقالته وانتقاله للعمل فى جامعة أخري في سراقسطة التي تبعد عن مدريـد حـوالي مائتي كيلومتر.

بحثت عن رقم تليفون الأستاذ واتصـلت بـه وذكرتـه بنفسي. فرحب بي بقوة، ولكنه نصحني بالتسجيل مـع أحـد الأساتذة بالقسم، لأن التسجيل معه مستحيل فـي الكمبلتنثيـا، كما أن التسجيل فى جامعة سراقسطة أيضا مستحيل لأننـى مبعوثة إلى الكمبلتنثيا رسمياً. فخاب أملي. وكـان علـى أن أبحث عن أستاذ آخر، وربما عن موضوع آخر.

في هذه الأثناء ترددت علي مكتـب الـدكتور سـامي العزبي، المستشار الثقافي فـي المعهـد المصـري لإتمـام الإجراءات واستشارته في هذه المشكلة. ومن حسن حظي أنه كان رجلا ودودا ولطيفا، وإن لم يمنع هذا طول الإجـراءات الروتينية وتعقيدها. ساعدني الدكتور سامي في حل مشـكلتي مع الجامعة ونصحني بعدم التدخل في الخلافات الداخلية بين الأساتذة وبعضهم الـبعض، واتصـل بالـدكتورة بيجيـرا وأوصاها عليّ وقال إنها صديقة حميمة لمصر ومتعاونة جداً مع المعهد ومعه هو شخصيا.

لست أدري ما السر في انجذابي إلى الـدكتور سـامي الذي بدأ منذ رأيته أول مرة، ولم أنتبه إليـه إلا بعـد ذلـك بأسابيع. هل هو اهتمامه بي الذي بدا لي - في وسـط كـل مشاكلي- الملاذ الوحيد في الحياة، أم المبالغة في الاهتمـام، هو مبالغ فيه أم أنني توهمت ذلك، لا أدري. حـين تأملـت وجهه، وجدت فيه بعض ملامح من خالد و هاني، لـم يكـن نحيفا مثلهما تماما، ولكنه على كل حال لـم يكـن سـمينا، متوسط العود، صعيدي من قنـا، أسـمر الوجـه، متناسـق الملامح، تنم عيناه عن طيبة دون أن تخفيـا حـدة الـذكاء والحساسية. كان يعمل أستاذا في قسم اللغة العربية بجامعـة الإسكندرية، ولكنه درس في أسبانيا وحصـل فيهـا علـى الدكتوراه في الأدب الأندلسي. لم يكن متزوجـا رغـم أنـه تجاوز الخمسين. ومع ذلك كان يبدو سعيدا، سعادة لا مبـرر لها في حياته المرهقة حيث يعمل كثيرا، وبدا لـي أن نـورا صافيا ينبع من داخله، عن اطمئنان وإيمان عميق، لم أكـن أدري مصدرهما ولا كنههما.

كان يتعامل مع علاء بحنان بالغ، وكأنه ابنه، واعتبر أن مشكلة الحصول علي حضانة مناسبة ، مشكلة شخصية له،

ظل يسعى إلى أن وجد لها حلاً جيداً. وبهذا حلت معظم المشاكل الأولي التي وترتني طوال شهرين من الزمان، حتى أنني لم أكن قد انتبهت بعد إلي المدينة الجميلة التي أعيش في ضواحيها وأتنقل بين أحيائها المختلفة عبر شبكة المترو الواسعة والتي كانت مصدر إبهار لي، إذا قورنت في تعقدها بخطى المترو في القاهرة.

من حسن حظي أن مسكني يقع في نهاية أحد خطـوط المترو الحيوية. من خلاله أستطيع الذهاب بسهولة وفيمـا لا يزيد عن نصف ساعة إلي أي مكان، وخاصة وسط المدينـة حيث البلاثا مايور ومتحـف البـرادو وحديقـة الريتيـرو ومجموعة الميادين الصغيرة الجميلـة التـي تـربط بينهـا مجموعة من الشوارع الصغيرة القديمة، يفضي بعضها إلـى بعض، والتي تمتلئ كلها بالبشر في الأمسيات وخاصة فـي نهاية الأسبوع، بدءا من مساء الجمعة.

حين يكون الجو جميلاً يسمح بالخروج إلى الشـوارع، كان الناس يملأون هذه الشوارع، والميادين يحتسون الشـاي أو القهوة أو البيرة ويأكلون الآيس كريم. أما إذا كان الجـو ممطرا، فكانوا يجتمعون فـي داخـل المقـاهي والبـارات

ومحلات الرقص. بدءا مـن التاسـعة أو العاشـرة تمتلـئ المحلات عن آخرها بالشاربين والشاربات ويبـدأ الـرقص المجنون حتى الساعات الأولى من الصباح.

في البداية كنت أتجول - متوجسة - مع عـلاء فـي ساعات ما بعد الظهيرة وأول المساء. فيما بعد حين تعرفـت على مليكة وفاطمة، كان يمكنني أن أتـرك عـلاء معهمـا، وأجلس مع الناس - وحدي - في الميادين أو المقـاهي دون خشية لأنني قد ألفت الأماكن، وبدأت في التعرف على عادات الناس. على كل حال لا أحد يتدخل في شئوني طالما أنني لا أتدخل في شئون أحد. ثم أنني بحجابي، في مراحله المختلفة، لم أكن موضع اهتمام من أحد، وإن كنـت محـط نظـرات التعجب والاستغراب. كان هذا مصدر قلق لي في البداية ثـم اعتدت عليه.

كنت مهتمة باكتشاف هذا العالم الجديد الملىء بالغرائب بالنسبة لي، والذي كان مختلفا عن الصورة التي رسمتها لـه قبل مجيئى. حاول الدكتور سامي أن يساعدني في الفهـم، وذهب مرة معي إلى وسط المدينة لتشجيعي على ارتيـاده، ونصحني أيضا بزيارة مكتبة الاسكوريال القريبة من مدريد،

بالإضافة طبعا إلي طليطلة والجنوب، ولكني لم أكـن أريـد الخروج من مدريد قبل أن أتعرف على ملامحها الأساسـية التي تساعدني على الحركة والتنقل.

ذات مرة وأنا جالسة في مقهى كيخون بالبلاثـا مـايور وجدت نفسي أطلب ثيرفيثا. كنت قد تعودت على الاسم مـن كثرة جلوسي على المقاهي التي أعجبني نظامها، واسـتمتاع البشر بالجلوس عليها باسترخاء ومتعة لم أظن أبـدا أننـي يمكن أن أحظى بهما في حياتي المعذبة. قلت ربمـا كانـت البيرة وراء هذا الإحساس بالمتعة فلم لا أجربهـا، وخاصـة أنها ليست من الخمور كما فهمت من هاني قبل ذلـك ومـن الدكتور سامي الذي لم يتورع عن شربها في المـرة التـي اصطحبني فيها إلى هذا المقهى بالـذات، هـي إذن ليسـت حراما.

كان طعمها مرا وغريبا إلى درجة أنني كدت ألفظ أول جرعة من فمي لولا وجودي وسط الناس. تجرعتها بصعوبة ولكن فمي تعود على طعمها مع الجرعات التاليـة. وبـدأت أشعر بخدر لذيذ كدبيب النمل يسري في أوصـالى، وكـأن شخصا حميما يدغدغني. ومع ذلك فقـد قـررت أن أكتفـي

بزجاجة واحدة صغيرة، خشية أن أفقد توازني قبل أن أعـود إلى البيت. والحمد لم يحدث شيء.

تعرفت على مليكة الجزائرية وفاطمة السورية. تعرفت عليهما في الجامعة، كانتا تدرسـان تحـت إشـراف نفـس الأستاذة. تعرفت على عربيات وعرب آخرين لكني وجـدت مع مليكة وفاطمة تقاربا في الأفكار والمشاعر، كمـا أنهمـا كانتا تسكنان - معا - بقرب منزلي. وكان هـذا يسـاعدني على ترك علاء معهما أحيانا، حينما تكون لدي دروس بعـد موعد الحضانة، أو حينما أريد أن أكون وحدي. كما أنهمـا أحبتا علاء وساعدتاه كثيرا في تقبل الأسبانية وتأكيد كلماتها الأولى التي كان يتعلمها في الحضـانة. وكـان هـو نفسـه مستريحا إليهما، بل كان قد أحبهما وتعود عليهما وسكن.

عجيب أمر هؤلاء الأطفال. كان شديد الانزعـاج فـي البداية من كل المشاكل التي قابلناها. ورغم أنـه لـم يكـن يستطيع أن يعرف بالتفصيل طبيعة المشـكلة إلا أن التـوتر والقلق اللذان كانا يبدوان على وجهي وفـي سـلوكي، كانـا ينتقلان إليه، فيصبح عصبيا، كثير البكاء. في بعض الأحيان، كان يشعر أنني في مشكلة أكبر من أن أحلها، فكـان يهـدأ

ويقترب مني ويحتضنني بحنان كمن فهم أنني في حاجة إلي العون والمساندة. كم كنت أحبه في هذه اللحظات.

مع الوقت والتعود علي الحضانة بدأ يكون علاقات مـع زملائه وزميلاته في الحضانة. كان يميل إلي البنات أكثـر، إلي درجة أنه كان يعاكسهن في الشارع. حمدت ا أنه قـد طلع لي ولم يطلع لأبيه، كانت بقت كارثة.

لم ينس علاء أباه تماما وإن كان قد تعود على غيابـه. كان يسأل عنه كثيرا في البداية، وخاصة أن محمود كان دائم الاتصال في الشهر الأول ليطمئن علينا. أحيانا كان علاء يلح فنتصل نحن به. ومن ناحيتي لم أكن ضد أن تكـون صـلة علاء بأبيه طيبة، ولكني في نفس الوقت كنت أبحـث عـن الطريقة التي سأقدم بها لعلاء مسألة الانفصال التـي طغـت علي قبل أن أسافر والتي ربما كانت أحـد الأسـباب وراء سفري. لكني - طبعا - لم أشر إلى ذلك لمحمود.

في البداية ظننت أنني في حاجة إلى مسـافة تجعلنـي قادرة على تقييم العلاقة - من بعيد - علي نحو موضوعي. ورغم المشاغل والتوتر كان ذهني يعمل ويفكر في هذا الأمر فعلا، ووجدتني أصل إلي قرار أنها علاقة لا جدوى منها ولا

مستقبل لها. يستحيل أن أعيش مع واحد مثل محمود مهمـا أظهر من لطف وحنان في بعض الأوقات. فأنـا لا أحتمـل شذوذه ، والحياة معه بهذه الطريقة أسـوأ مـن الانفصـال بالنسبة لعلاء. على الأقل سأكون أقل تـوترا وأسـتطيع أن أربيه في هدوء. وحين يأتي الوقت الذي يذهب فيـه لأبيـه يكون قد اكتمل نموه على نحو سليم ويستطيع أن يقاوم مثالب أبيه.

ساعدتني مليكة وفاطمة في اتخاذ هذا القـرار. وكـذلك كان رأي الدكتور سامي حين توطدت علاقتي به وحكيت له الجوانب الأساسية في المشكلة، وإن كنت قد تأكدت بعد ذلك أن دوافعه في إبداء هذا الرأي كانت تختلـف عـن دوافـع صديقاتي. ليس هذا اتهاماً له، بل ربما أنا نفسي كنت أتمنـى أن تكون دوافعه مختلفة، فهو رجل وأنا قد بدأت أميل إليـه. أما هما فمهما حدث، لن تتزوجني إحداهما. ومع ذلـك فـإن تأثير رأيهما علي كان أقوي بكثير من تأثير رأيه.

كانت لكل من مليكة وفاطمة روح شفافة صافية صادقة، وهذا في الحقيقة هو ما جذبني إليهما دون غيرهما. لم تكـن المساعدات التي قدماها لكي أتعـود علـى العـالم الجديـد،

والاهتمام بعلاء وحدها هي السبب، فقد كانت الـروح التـي دفعتهما لتقديم هذه المساعدة هي نفسـها الـروح الصـافية الشفافة، وهي الجذر العميق وراء سلوكهما معي وفي الحياة عامة.

لقد تعرفت عليهما بالتدريج. في البداية كانتا حنـونتين متفهمتين لمشاكلي العملية. وبعد ذلك لمشكلتي العميقـة فـي الحياة. ويبدو أننا جميعا نعيش نفس المشكلة، وخاصة حـين نكون في الغربة ونضطر إلى مواجهة الآخر، أو نضطر إلى مواجهة أنفسنا لكي نكون قادرين على مواجهة الآخر.

لقد كادت الصدمات المتوالية التي حدثت لـي بسـبب غرابة هذا المجتمع تعصف بي وتضعني في حالـة تمـزق مطلق يقودني إلى جنون نجوت منه إلى حين. لم أكن قـادرة علي فهم هذه العنصرية وهذا العـداء، ولـم أفهـم معنـي الديمقراطية التي يتشدقون بها ليلا ونهارا وهم غير قـادرين على أن يسمحوا لامرأة واحدة - مثلي - أن تخـرج علـي إجماعهم في الزي، وتلبس الحجاب الذي لن يضـرهم فـي شيء.

كان من رأي مليكة وفاطمة أن الحجـاب لـيس هـو

القضية. وأنني أستطيع أن أخلعه دون أن أخسر كثيرا، هـذا في حالة ما إذا نجحت في حل مشكلتي حلا جذريا، مشـكلة هويتي . قالت مليكة:" هل هذا الحجاب هو - وحده - الذي يعلن أنك مسلمة؟ أم أن المسألة أعمق من ذلك". وهنا بـدأت أتعرف علي أنهما مرتا بنفس المشكلة حين وصولهما، لكـن يبدو أن معاناتهما كانت أكثر قسوة. فقد كانا هنا منذ ثـلاث سنوات ، عاشتا العامين الأولين في صراع وعذاب حاد حتى هداهما ا إلي الحل العميق للمشـكلة، وهمـا الآن تبـدوان سعيدتين راضيتين.

في البداية تحفظتا في الحديث معي عما أوصلهما إلـي هذه السعادة والرضا. اكتفيتا بمسـاعدتي عمليـا وطمـأنتي نفسيا، حتى تجاوزت معظم مشاكل البداية. وبعد ذلك جرتنـا الأحاديث في الأمسيات الرائقة إلى الجماعة التـي تنتميـان إليها. كنت قد لاحظت خلال الشهور الأولي أنهما تختفيـان في نهاية الأسبوع. وكنت أتصور أنهما تقضيانه مع معارف أو أصدقاء أو حتى أحباء، مثلهمـا مثـل الأسـبان الـذين تصورت أنهما اندمجتا فيهم، وحين كنت ألمـح إلـي ذلـك بالإشارة إلي المراقص أو المقـاهي، كانتـا تبتسـمان دون

الاستدراج إلي هذا الحديث، ولم أكن أفهم. فيما بعد فهمت أن مسلكهما معي، لم يكـن ناتجـا عـن ظرفهمـا الشخصـي ورضاهما الداخلي فقط، بل كانت طريقة متفقا عليهـا لـدى الجماعة، في التعامل مع المريدين الجدد.

قادتانى بالتدريج لأن أنشغل أنا نفسي وبدوافع داخليـة إلى التساؤل عن سر سعادتهما، وكيف لي أن أكون مثلهما. بدأتا الحديث في خيوط تتماس تماما مع ما كنت أشـعر بـه وأعيشه في علاقتي الخاصة بربي، هذه الخصوصـية التـي كانت ملكا لي وحدي لا أحد له الحق في الولـوج إليهـا أو التساؤل حولها. صحيح أن أبي كان دائما يلـح علـي فـي الالتزام بالفروض الخمسة وخاصة الصلاة، لكن هذا الإلحاح لم يكن يترك في أثرا. فأنا أكثر من يعرف مدي قربي مـن ا بغض النظر عن صلاتي أو صومي. كان لدي شيئا كبيرا أكبر بكثير مما يعرفه الناس، حتى أبي. أنـا أعـرف أننـي ملكية مطلقة وخالصة له، وأن ما أفعلـه لـيس إلا بتوجيـه مباشر أو غير مباشر منه. كنت أحب التشبه برابعة العدويـة التى كنت أعرف عنها عشـقها الإلهـي علـي نحـو عـام وغامض. وفيما بعد ، أثناء رسالتي للماجستير كنت قد بدأت

التعرف علي متصوفة الأندلس وفلاسفته المسلمين ابن باجـة وابن عربي وابن سبعين وغيرهم. وكنت أجد نفسي قريبـة من هذه الأفكار، لكن أمور حياتي شغلتني عن التعرف عليهم بعمق، وهذا ما جذبني إلي جماعة مليكـة وفاطمـة. فبعـد التمهيدات الأولية، وبعد أن وثقتا أنني صادقة في إيماني وفي توجهي المخلص الصافي، اصطحبتاني، مع عـلاء، للقـاء الجماعة.

كانت المرة الأولى التي نخرج فيها من مدريد.. لاحـظ علاء أننا لم نركب المترو وإنما ركبنا الأتوبيس. سألني: احنا رايحين فين يا ماما.

- رايحين نتفسح.

- طب ماحنا بنتفسح في المترو.

- المرة دي رايحين نتفسح كلنا مع تانـت مليكـة وتانـت فاطمة.

- ماما أنا بأحبهم قوي. ممكن أروح معاهم لو انت مشغولة.

- لا يا حبيبي. أنا باحب ابقي معاك.

- مش دايما يا ماما. انت طول الوقت بـره وأنـا يـا فـي

الحضانة يا معاهم.

- هما بيحبوك قوي يا علاء وأنا يا حبيبي لازم أشـوف شغلي. وبعدين انت لسانك بقى طويل كده ليه. طالع لأبوك.

- بابا واحشني قوي يا ماما. بابا حلو. بيحبني وبيدلعني أكتر منك. كل ما أعوز حاجة بيجيبها لي.

أصابني علاء باكتئاب. فكرت أنني أهملـه كثيـرا، وأن غياب أبيه سوف يصبح مشكلة كبيرة، وأنه قد بدأ يتمرد علي. لم أقل لمليكة وفاطمة، لكنهما لاحظتا ما حدث فانشغلتا بملاعبة علاء وتركتاني صامتة حتى وصلنا.

كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع. بيـت ريفـي يبعـد حوالي العشرين كيلومترا من مدريد. قريب مـن طليطلـة، توليدو كما أصبح الأسبان ينطقونها الآن. بيت ريفي بسـيط وجميل محاط بحديقة صغيرة لكن معتنى بها، تعج بـالزهور والأشجار المتنوعة. فهمت أنه ملك لأحد أعضاء الجماعـة، وأنهم يلتقون دائما هنا، في نهاية كل أسبوع، يقضونه كله مع بعضهم البعض. أحيانا يغيرون المكان ويلتقون في مكان آخر في داخل مدريد أو خارجها، لكـنهم فـي الفتـرة الأخيـرة

استقروا في هذا البيت.

حوالي خمسة وعشرين رجلاً وامرأة وإن كانت الغلبة للنساء وبعض الأطفال الصغار. من أعمار مختلفة ومن جنسيات متعددة، عرب من تونس والمغرب والعراق وسوريا والجزائر وألمان وفرنسيين وإيطاليين وبرتغاليين وإيرانيين. منهم الشباب والشابات والكهول والشيوخ، لكنهم جميعا يعرفون العربية بدرجات مختلفة، تسمح بقراءة بعض آيات القرآن، وإن بلهجة مكسرة كانت تضحكني في البداية، لكني تعودت عليها وأكبرت مجهودهم فيما بعد، مما أسعدني أنني وجدت بعض النساء، حتى الأوربيات يلبسن إيشارباً لطيفاً جميلاً، يمكنه أن يحل محل الحجاب.

عرفتني مليكة وفاطمة على أعضاء الجماعة. رحبوا بي بشدة، خاصة أنني كنت أول مصرية تنضم إليهم. كانوا يراهنون - كما قالوا - على قدرتي - كمصرية - على قراءة القرآن بلغة سليمة. يبدو أنهم صدقوا أن اللهجة المصرية هي لغة العرب المعاصرين، رغم أن الصلة الأساسية للأسبان هي بالمغرب التي ما زالوا يعتبرونها جزءا من أسبانيا، وربما لأن أهم قراء القرآن مصريون. ضحكت

وسعدت أنني أمتلك شيئا خاصا أسـتطيع أن أقدمـه لهـم. وبالفعل في بداية الاجتماع رحبوا بي، وعلى سـبيل تأكيـد الترحيب طلبوا مني أن أقرأ لهم ما أحب من آيات القـرآن، فقرأت لهم من سورة الكهف:

"فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمنـاه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك علي أن تعلمني ممـا علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبرا. وكيف تصبر علي ما لم تحط به خبرا. قال ستجدني إن شـاء ا صـابرا ولا أعصي لك أمرا. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شـيء حتى أحدث لك منه ذكرا.فانطلقا حتى إذا ركبا فـى السـفينة خرقها قال اخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا. قال لا تؤاخذني بما نسـيت ولا ترهقني من أمري عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيـا غلامـا فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا. قال إن سألتك عـن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا. فانطلقـا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فـأبوا أن يضـيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت

عليه أجرا. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لـم تستطع عليه صبرا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فـي البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سـفينة غصبا. أما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشـينا أن يرهقهمـا طغيانا وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينـة وكـان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فـأراد ربـك أن يبلغـا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلتـه عـن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا".

كنت قد اخترت هذه الآيات لأنني أحفظها وأحب طابعها القصصي ولأني أعرف أنها بالذات من الآيات التي يهتم بها المتصوفة والزهاد لأنها تحوي الظاهر والبـاطن والتأويـل وتشير إلي الأولياء وكراماتهم. ولكني لم أكن أقدر أن هـذا الاختيار سيلقي لديهم هذا الاهتمام والتقدير لي واليقين بأنني قريبة منهم جدا. كما أن صوتي وطريقة إلقائي قـد جعلـتهم يعيشون في حالة غريبة من النشوة، قادتني أنا نفسي إلي لذة غريبة. فكنت أقرأ وكأن قوة عليا هي التي تنطقنـي. ولأول مرة منذ جئت إلي هنا أشعر بالأمان والاطمئنان المطلق، بل

إنها كانت أول مرة في حياتي أشعر فيها بهذا الوجد العميق. أنا مع ربي، ولكن لست أنا وحدي فقط. معي آخرون ولكنهم ليسوا منفصلين. هم أيضا معه. شعور غريب، لـم يتكـرر للأسف. وكم أنا فى شدة الحاجة إليه الآن.

بعد هذه البداية الجميلة أفاقتنا آمرة الجماعـة، وكانـت أسبانية تعرف العربية جيدا، لنعود إلى درس اليـوم. كـان تذكيراً للأعضاء بمبادئ الجماعة، ولكي يتم تعريفـي بهـا وإدماجي معهم.

" المبدأ الجوهري هو "وحدة الوجود" مستمداً من فلاسفة المسلمين في الأندلس. الهدف هو الوصول إلي ا بالعزلـة عن الآخرين. نريد أن نكون ربـانيين لنكـون سـعداء إذا تحررنا مما يشغل البشر. ولكن العزلة عن الآخرين لا تعني أن يكون كل فرد منعزلاً بذاته، بل سـنكون معـا، جماعـة واحدة متحدة، لسنا ضد المادة كما كان يقول ابن باجة، وإنما نسعي إلي المعرفة اللذيذة المفعمة بالحكمة، المجلوة المعاينـة والمعاشة وليست التأملية. نريد أن نعيش حياتنا معا أصـفياء أنقياء. المهم أن نبتعد عن هذا العـالم الشـرير. علينـا أن نتخلص من شرور العالم الجديد، من شـرور مـا يسـمونه

بالحضارة... العودة إلي الطبيعة هي الحل. ليست الطبيعة الخارجية فقط، بل طبيعتنا نحن، الطبيعة الإنسانية التي جبلها ا فينا. أن نعود كما ولدنا صفحة بيضاء قادرة علي الحب والاخلاص والنقاء والتواصل نريد أن نهدي كل البشر إلي طريقنا ولكننا لسنا بقادرين. وما نعيشه بيننا محرم علينا أن نعيشه مع غيرنا. نحن أسرة واحدة. نحن الأسرة الواحدة الوحيدة. وأسرارنا ليست مباحة. علينا أن نحتفظ بها فى دواخلنا، ولا نبوح بها إلا لمن نثق أنه قريب منا راغب في الانضمام إلينا."

كان الكلام جميلاً. مقنعا بالنسبة لي، متوافقاً مع معتقداتي القديمة والأهم من ذلك أنه كان يعدني بأسرة جديدة جميلة أنا في شدة الحاجة إليها في ظروفي الصعبة. بدت لي هذه الأسرة أمانا واطمئنانا ووجدت فيها ما بدا نوعا من الحرية الفكرية البعيدة عن التعنت والشكلية.

غير أن مسار الحياة في بقية اليوم أظهرت لي بعض الأشياء المقلقة التي وجدتها متعارضة مع هذه الحرية. فثمة جماعية في كل شيء، في الصلاة والدعاء والذكر والطعام. ولكن الجماعية ليست جماعية متساوية، فقد ظهرت بعض

الرئاسات. فبالإضافة إلى الآمرة هناك ما يشبه النواب. كـل منهم مسئول عن جانب من الطقوس والممارسات. ومن بين هؤلاء كانت مليكة وفاطمة. لاحظت أيضا أن ثمة تقاربا بين بعض الشابات وبعض الشباب رغم أنهم غيـر متـزوجين. وكان هذا مصدر قلق لي مع سعادة خفية أيضا.

في المساء بعد انتهاء الدروس جلسنا معا في الحديقة - وكان الجو ابريلياً لطيفاً - لنتناول طعام العشـاء، وكانـت صدمتي الكبيرة بقدر الفرح، إذ وجدت أن الشراب مباح مع الطعام، أنواع متعددة من الأنبذة والبيـرة، بالإضـافة إلـي السانجرية المألوفة عند الأسبان. وهذا أعطاني الفرصة كـى استمتع بالبيرة التي كنت اعتدت عليها في مدريـد. ويومهـا نصحوني بتناول النبيذ الأحمر، فهو شراب رباني في عرفهم ولست أدري من أين أتوا بهذا الكلام. قالوا أن بعض الفقهاء حلله.

أثناء الأمسية لاحظت أن بيتر الألماني، الذي سمى نفسه بعد إسلامه عبد ا ، مهتم بي علي نحو ما، تتـابعني عينـاه بهدوء وصمت، ويبدو لي أنه أعد نفسه لكي يجلس بجواري أثناء الطعام، علي يساري فيما كان علاء يجلس على يميني.

كنت مشغولة بشرابي اللذيذ وبإطعام علاء، ولم أكن أهـتم - كعادتي - بالطعام كثيرا. لكن بيتر أخذ ينبهني إلي ضـرورة الحد الأدنى من الطعام، كي نستطيع أن نبقي أحياء. قال إنه أيضا لا يحب الإكثار من الطعام، هو يحب حـلاوة النبيـذ وجمال النساء. وكان هذا بداية للإشارة إلى جمـال عينـي ورقتهما وصفائهما وحزنهما الـذي شـده. كـان يتحـدث بالإسبانية مع كلمات عربية قليلة يعرفها.

كان يتحدث وسط الناس، وكأنه يتحدث إلـى وحـدي، وكأنه يجلس وحده. كان يتحدث كما لو كان في حالة وجـد صوفي، لا يحادث شخصا آخر، بل يخاطب نفسـه، وكـأني توحدت به، كان يتحدث كما لو كان قد وصل - معي - إلى الاندماج في الذات الإلهية. ويبدو أن حديثه العـذب - مـع الشراب - قد أصابني بالعدوى فرحت أتابع شرابي وإطعام علاء في صمت مستمتع لطيف. ولا شك أنه لاحظ ذلك، لأنه كان في انتظاري، حينما أنمت علاء مـع مليكـة وفاطمـة، وخرجت لكي أبحث عنه في الحديقة.

عدت إلى مدريد وأنا في حالة نشوة وصفاء.كنت سعيدة بانضمامي إلي هذه الجماعة، وبصفة خاصة بالتقارب الحميم

الذي تم بيني وبين عبد ا   بيتر. كان تقاربا روحيا عميقا لم أعش مثله مع أحد آخر قبل ذلك. بداخلـه شـاعر حقيقـي ومتصوف كبير، وإن كان هو نفسه لا يبدو مدركا ذلك.. هو يعيش حياته هكذا دون أن يفكر في تسمية لهـا. كـان فـي أسبانيا يعد دكتوراه في مجال التصوف. اختار ذلـك حتـى يكون متسقا مع نفسه، مع احتياجاته ورغباته. كان يتحـدث عن نفسه وكأنه يتحدث عني، وحين تحدث عما شـعر بـه إزائي منذ الصباح الأول، شعرت أنه صادق إلى درجة أنني تلمست الطريق في الظلام إلى يده، التي كانت لمستها حنونة دافئة، وكان حضنه الطويل قبل الافتراق إلى غرفتينا أجمـل حضن في حياتي. لم نكن لا أنا ولا هو نرغب في المزيد. لم نكن نريد من الحياة كلها - في تلك اللحظة - سوى هذا.

عند عودتي إلى مسكني وجدت خطابين أخرجاني مـن نشوتي، وقادني أحدهما إلى الحزن، والآخر إلى الغضـب. كان الأول من حمدي:

عزيزتي: هناء

تحياتي وأشواقي. لم أعد قادرا على إخفاء مشـاعري نحوك. كنت قد اطمأننت إلى وجودك في حياتي، حتى ولو لم تكن لقاءاتنا كثيرة. حاولت أن أشغل نفسي عنك، أنساك يعني بأن أخطب أخرى، لكنى كنت أعرف أنني أضـحك علـى نفسي. وهذا ما حدث بالفعل، لم أسـتطع الاسـتمرار فـي التمثيلية. أخيرا انتهى الأمر.

بعد سفرك أخذ الشعور بفقدانك يتزايد يوما بعـد يـوم. قاومت رغبتي في الكتابة إليك طوال هذه المدة، ولكنـي لـم أعد قادرا. بالأمس كان أربعين مجدي الجـابري. تعرفينـه، التقينا به مرة معا على المقهى إياه. هذا الشـاب العجـوز، وجهه وجه طفل وسيم وعينان حزينتان، صافيتان للحزن، ذو لحية خفيفة، لا يبدو أنه يهتم بها. كان شاعراً جميلاً. عـانى طويلا من مرض السرطان، كان يعرف، وكان يكلم المـوت حينما علم أنه آت لا محاله . كان يقول له في قصيدة اسمها: "مورد جثث".

سواء كان اسمك سفر أو عزرائيل أو عبـد الـرحمن وسواء كانت هيئتك اللي بتظهر فيهـا ثعلـب أو تمسـاح أو

حمامة بيضا...

مش...هتفرق...طالما اتفقنا وتممنا الصـفقة. وإديتـك أبويا واديتني عشرين سنة واهم عدو.

....

عايز تاخذني، تتعاقد مع حد غيري، أنا مورد جثث. وفاهم شغلتي كويس وحببها، أيوه. فاكر نظرتك لي بعد ما دفنا جدي، كنت انت ساعتها لابس هيئة التربي.

أنا ما خدعتكشي.

شعره جميل رغم العامية، أليس كذلك؟

في الأربعين اجتمع أصدقاؤه، أبناء جيلي. جيلنا معا في الآتيليه وقرأوا كثيرا من شعره. وبعضهم قرأ شعرا عنه. من أجمله هذا المقطع من قصيدة أسامة الديناصوري سماها "وفاة مورد الجثث":

على فكرة يا مجدي..

لي عندك خدمة يا خويا: يا ريت.. عشان خاطري.. يعني لو سمحت..

تكلملي الباش مهندس عزرائيل تلاقيه بقـي صـاحبك دلوقتي الروح بالروح.

وخليه.. ا لايسيئك.. يصهين عني شوية. أنا بالذات .. لسه بدري قوي.. ما يغركشـي فيـه حاجـات كتيـره مـا عملتهاش.. ونفسي أعملها.

ومتهيأ لي.. لازم أعملها يا صاحبي.. مافيش مفر.

إنت نفسك سبق وقلتها:

"الحياة مش بروفة"

تعرف ياد:

موتك خلاني أكتشف إن محبي الحياة دول غلابة قوي.

ووقت الجد.. يستخبوا زي الفيران، أما الزهاد العتاولة اللي زيكم.. فمافيش حاجة بتفرق معاهم إيه يا مجدي.. إحنا فين.. وانتو فين؟!

هناء:

أنا حزين. ليس فقط بسبب موت مجدي. جيلنا كله بـدأ في طريق الموت. أنا حزين أيضا علـى نفسـي، لا أدري

لماذا. كل شيء يقودني إلى الحزن. هل تستطيعين أن تكتبي لي ولو كلمتين؟

حمدي

أصابني الخطاب بالحزن والألم. تذكرت مجـدي فعـلا رغم أنني لم أعرفه جيدا. في المرة الوحيدة التي رأيته فيهـا تخيلت أن وراء هذا الوجه الملائكي المتجهم همـا عظيمـا. آلمني أيضا ما يعيشه هذا الجيل من الشباب، وتأسيت علـى حال حمدي. فكرت أن أمسك بالقلم وأكتب له، لكني ترددت. لم أكن أعرف ماذا أقول له، الآن. وسرعان ما تلقفني خطاب صفاء الذي نقل إلي إصرار محمود على عـدم الانفصـال وتهديده بأنني إذا أصررت عليه، فسيأتي ويأخذ مني الولد..

كنت قد أرسلت إلى صفاء لتحاول إقناع محمود. فهـي الوحيدة في أسرتي التي تتفق معي في هذا الموضوع. وهـذا هو الرد الذي أثار غضبي وحنقي، وفي نفـس الوقـت زاد إصراري، لأنني اشتممت في الرد نوعا مـن الرغبـة فـي التفاوض. هو يعرف أن التنازل عن علاء ليس في طـاقتي، كما أنه ليس من حقه قانونا.أظن أن علاء يمكـن أن يكـون إشارة إلي رغبته في التنازل عن مؤخري ونفقتي ، وربمـا

يريدني أن أتنازل عن شقتي وأثاثي بُعده ولكن - علي كـل حال- طريق التفاوض مفتوح، وممكن الوصول إلي شـيء. وأظن د. سامي يمكن أن يساعدني ولو بالرأي.

طلبته في التليفون.

- صباح الخير أنت فين؟

- أهه موجودة في الدنيا. حضرتك عامل إيه؟

- الحمد . ما أخبارك؟

- مش كويسة. عاوزة أتكلم معاك شوية. ممكن؟

- قوي أهلا وسهلا.

- تحب حضرتك امتى وفين؟

- ممكن بكرة. الساعة ٨ في نفس القهـوة. إيـه رأيك؟

- كويس قوي. مرسي. أشوفك بكرة. مع السلامة.

لم يكن الدكتور سامي يملك سيارة، رغم أن مرؤوسـيه يملكون سيارات فارهة. كان يقول وعنده حق أن الإنسان في مدريد لا يحتاج إلى سيارة. فالمترو والأتوبيس فـي غايـة

الانتظام والنظافة والراحة. ولكنه لم يكن يستخدم لا المتـرو ولا الأتوبيس. كان ينفق مبالغ طائلة على التاكسيات وعلـى العزائم أيضا. كان كريما إلي درجة التبذير علـى ضـيوفه، حيث لم يكن يسمح لأحد من الموجودين في أي جلسة بـدفع الحساب. وهذا أكد لي زهده الذي فسـرت بـه الاطمئنـان الداخلي العميق الذي يبدو في عينيه. إنه ليس في حاجة إلـي شيء في الدنيا. لماذا يكتنز المال؟ لا زوجة ولا أولاد.. قال ذات مرة أنه سعيد لأنه يعتمد في حياته علي مبدأين، اليـأس من أن تعطيه الدنيا شيئا جديدا، وطول البال الـذي يعطيـه القدرة على تحمل هذا الوضع. لا ينتظر شيئا، فإذا جاء فرح به. وإذا لم يأت فلم يخسر شيئا.

في الموعد كان موجودا. لاحظت أنه عبر عن اشـتياقه لي بحرارة. وكنت أنا مزدوجة المشاعر. فقد اشـتقت إليـه بالفعل بعد فترة غياب طويلة نسبيا، لكن ما مررت به خلال الأسبوع الماضي مع بيتـر والجماعـة والخطابـات التـي أزعجتني، جعلت مشاعري ازاءه مضطربة ومشوشة.

لم أحك له موضوع الجماعة، حكيت له فقط مشكلتي مع محمود ووافقني علي إحساسي بأن هناك إمكانيـة للتفـاوض

فعلاً، ونصحني بأن هذا النوع من البشر يحتاج في التعامـل معه إلي مزيج من اللين والحزم. فهذا هو المـنهج الوحيـد الصحيح في التفاوض. وليس كما يفعل ياسر عرفـات مـع اليهود. قال الجملة الأخيرة بمزيج من الغـيظ والاسـتهزاء. وكانت هذه المرة الأولي التي يتطرق فيها - معـي - إلـي الحديث في السياسة. فالمعروف عن الدبلوماسـيين أنهـم لا يعبرون عن آرائهم في السياسة إلا إذا كانت متطابقـة مـع مواقف حكوماتهم، أو إذا كان المستمع قريبا فإنهم يعبـرون عن الحقيقة.

سعدت بهذه الإشارة فمعناها أنه يثق في، ويخمن أننـي ممن يرون ألا فائدة من المفاوضات مع إسرائيل. معنى ذلك أنه يعرفنى دون أن نلتقى كثيراً. يعرف مـا وراء مظهـرى وربما يدرك تناقضاتى وأزماتى. وربما يتوق إلى لقاء روحى التى تلتقى بروحه فى الرغبة عن العالم.

عندما سألته عن سر غيظه من ياسر عرفات. قـال أن طريقته ستؤدى إلى ضياع فلسطين لا محالة. وقال أنه رغم عدم انتمائه إلى أى اتجاه سياسى طـوال عمـره، إلا أنـه –كمواطن عادى- ورغم أنه يحب السلام، ووافق على اتفاقية

كامب ديفيد، فهو يدرك المأزق الذى وصلنا إليه، ونحن نسلم بكل أوراقنا واحدة بعد الأخرى، دون مقابل حقيقى.

أمنت على كلامه، فازداد اطمئناناً واستطرد فى الحديث وتطرق إلى الفساد الذى يسود أنحاء عالمنا المعاصر، والذى لا يترك شبراً من الأرض وخاصة عندنا فى مصر. فإن كل المعايير التى تحكم اختبار المستشارين فى السفارات بالخارج لا علاقة لها بالصلاحية، بل بالمصالح والعلاقات بـالأجهزة الأمنية، وانتبه ليستثنى نفسه وقال إن أخاه مسئول كبير فـى وزارة التعليم العالى، وأنه هو الذى رشحه.

وحكى عن الضغوط التى يتعرض لها كى يدعو مثقفين لا قيمة لهم فى المؤتمرات والندوات لمجرد أنهم على صـلة بشبكات المصالح والأجهزة، ويتجاهـل العلمـاء والمثقفـين الحقيقيين.

وتحدث عن أحوال المعهد الذي يديره، وكيف أنه يبـذل كل الجهود مع الأسبان كي يدعموه لأن الميزانية المخصصة له من مصر لا تكفي أجر الموظفين. وعن أحوال المبعوثين في مدريد أو كيف أن معظمهم متخلفون ولاهون عن العلـم. كان أثناء ذلك يشرب البيرة بشراهة. وكنت أشـرب بتـأن

وهدوء. ويبدو أن كثرة البيرة قد أثرت فيه، لأننا حين خرجنا من المقهي، دعاني لمرافقته إلي منزله، فرفضـت.. فـرغم أنني كنت أتوق إلي حضن دافئ منه، إلا أنني خفت منه في تلك الليلة. فقلت له يمكن مرة تانية.

وأنا في طريقي إلى البيت شعرت ببعض الندم أنني لـم أستجب له، فهو مهما كان ليس شريرا وما كان ليفرض علي شيئا لا أرضاه. وحين عدت إلي البيت اتصلت به واعتذرت عن رفضي. فقال طب ما تيجى أو أجيلك. وكان كلا الحلين مستحيلا بعد منتصف الليل. وبـدأت أعـاني الاضـطراب والتوتر ليس فقط بسبب حاجتي إليه، بل لأن ذهني بدا فـي التفكير فيما أعيش بين بيتر وسامي وهاني وحمـدي. كـل هؤلاء الرجال مرة واحدة، ماذا أحتاج منهم، ومن كل منهم ، هل هو نفس الشيء، أم أشياء مختلفة؟

كان علاء عند مليكة وفاطمة. لم أشأ وأنا عائدة أن أمر عليه وأعود به إلي البيت. لا شك أنه نائم الآن. ولم يكن من الحكمة أن أوقظه وأسير في الشوارع في هذا الوقـت مـن الليل. ولكن ليس من الحكمة أيضا تجاهله علي هذا النحـو، سوف يأتي يوم ينتقم مني على ذلك. كان مـن الممكـن أن

أذهب وأنام أنا هناك أيضا. لكن هذا لا ينفع الآن وأنا في هذه الحالة من القلق والتوتر.

لم أستطع النوم معظم الليل. كان بداخلي صراع عنيف، وحنق أعنف على نفسي. كيف أتصرف هكذا. إهمال عـلاء وإهمال الرسالة والوقوع في غرام كل مـن يعـرض علـي نفسه، أو حتى دون أن يعرض. أراني متلهفـة علـي كـل مغازلة، ماذا يعني ذلك هل أنا في حاجة إلي آمان، ليس لدي أي ثقة في نفسي. وهل صحيح ما أبرر به أفعالي لنفسي أن ا راضٍ عني. هل هذا حلال أم حرام؟ دماغي تكاد تنفجر.

ما إن جاءت الساعة السابعة حتى ذهبت لأوقظ عـلاء وأعود به إلى البيت ليفطر وأعده للذهاب إلى الحضانة.

توطدت علاقتي ببيتر في مدريد. كان سـهلا أن أزوره في منزله المتواضع في إحـدي الضـواحي القريبـة مـن ضاحيتنا، وكان سهلاً أيضاً، أن يأتي لزيارتي. وأحيانا كنـا نلتقي مع مليكة وفاطمة عندهما أو عندي. في البداية لم يكن يبدو عليهما التعجب من علاقتي به، رغم ما يبدو عليها مـن حميمية تظهر حتى ونحن معهما. علاء هو الذي كان قد بدأ يقلق ويظهر ضيقه، وخاصة حينما يكون بيتر عنـدنا، فـي

وقت متأخر من الليل.

كان بيتر يحاول أن يجتذب علاء إليه. يحضر له بعض الهدايا، يلاطفه بعربيته المكسرة. لكن علاء لم يكن يستجيب دائما، وخاصة عندما يبدأ النوم في مداعبته، ولم يكن يريد أن ينام وبيتر موجود. كان يعبر عن ذلك بوضوح جارح لبيتـر أحيانا. وأنا لم تكن لدي الرغبة دائما في الاستجابة لطلبـات علاء الذي بدأ يصبح لحوحا. كنت أخشـى أن يـنجح فـي ابتزازي. وكنت في نفس الوقت، راغبة في بقاء بيتر، حتـى بعد أن ينام علاء.

تكرر حضن بيتر الجميل في بيته أو في بيتي، أثناء نوم علاء. وأحيانا كان علاء يصحو ليجدني في حضـنه فكـان يثور ويغضب ويبكي بحرقة. لم نكـن نفعـل أكثـر مـن الأحضان، لكنها كانت لذيذة. بيتر شخص لذيذ. هادئ وحالم وحنون، أعيش معه لحظات استراحة. لا أشعر معـه بـأي قلق. لم يحاول أبدا أن ينزع عني أي جزء من ملابسي، رغم أن القبلات كانت طويلة وممتدة طول الحضن وامتداده كانت نشوة غريبة، لا يبدو فيها أي أثر للشهوة الجنسية. لـم أكـن أدري كيف يتحول هذا التلامس المادي إلى نشـوة روحيـة

صافية، لا نشعر فيها أننا أجسام من لحم ودم.

كان لقائي ببيتر خير تجسيد لانتمائنـا إلـى الجماعـة وقيمها. نحن طاهران، ونحن وحدنا، ومعنا ا . لا نبتعد عنه في أي لحظة، نتهجد معه في محرابه، ونشعر به راضيا عنا ومباركا لفعلنا. ورغم ما يبدو من موافقة مليكة وفاطمة على هذه العلاقة ضمنا، فلم أجرؤ أبدا على أن أخبرهما بتفاصيل ما يحدث.

في بعض الأحيان، كنا نحتاج ونحن في قمة النشوة إلى الخروج للتجول، وكانت أنسب الأماكن لتجولنا هي الحـدائق العامة، التي لم تبخل بها مدريد علينا. سواء في داخل المدينة أو في ضواحيها. كنا نتجول بالساعات في حديقة الريتيرو أو في لاسييرا وفي حديقة القصر الملكي وبجوار سوره الـذي يطل على الغور العميق وكوبري الموت.

كنا نذهب في أوقات مختلفة، وسواء كانت الحدائق مليئة بالناس أو خالية، كنا نشعر أننا وحدنا مع الطبيعة، نسـتمتع كلنا معا وخاصة أن الأسبان يتدخلون في تنظـيم الحـدائق بطريقة تبدو طبيعية تماما لا دخل للبشر فيها.

في مرات أخرى اصطحبني بيتر إلى خارج مدريد، إلي طليطلة، وإلى الاسكوريال بقصرها وجامعتها القديمة المباني العتيقة جميلة وقبور الملوك والأمراء تحفة أثرية بديعة. كان بيتر يحاول أحيانا أن يجذب انتبـاهي إلـى جمـال العـالم الخارجي، ولكني لم أكن مهتمة إلا بسعادتي الداخلية معـه، كنت أحاول أن أنسى العالم. كانت هذه هي اللحظـات التـي أعيشها مع نفسي، وأنسى مشاكل علاء وتناقضـاتي الحـادة ومشاكل الطلاق، والأخبار التي تصلني من أبـي وصـفاء ورضا ، الذين أصبحت حياتهم شبه خاوية، بدوني وبـدون أمي.

لم يكن بيتر يحاول أن يتدخل في حياتي، لم يسألني أبدا عن أية تفاصيل. كان كمن يبدو متدلها في عشـق خـالص بدون تساؤلات. أنا التي كنت أحيانا أتذكر شيئا فأحكيه لـه. حكيت له عن مشكلتي مع محمود، لم أحك له عن علاقـاتي الأخرى وهو لم يسأل. بل إن موقفه بخصوص مشكلتي مـع محمود كان غريبا. قال اتركيها . ما دمنا في حضرته، لا ينبغي أن نعكر صفونا بشيء. هو كفيل بنا.

بدا لي أحيانا وكأنه ساذج، أو أنه يهرب من مشكلة ما.

حاولت أن أسأله ولكنه كان يتهرب من الإجابة، لكن بطريقة صادقة، وكأنه فعلا طلق الحياة البشرية إلى ما لا نهاية، رغم أنه كان يعشق الطبيعة والشراب حتى يسـكر. وفـي هـذه الحالات كان يبدو - أحيانا - عدوانيا، وتبدو منـه بعـض التصرفات أو الأفكار الغريبة التي تتناقض مـع تصـرفاته وكلامه حين يكون يقظا. في هذه الحالات كان ينم عن يـأس من الحياة، وإحساس كامل بالغربة في هذا العالم. عالم يبـدو أنه قد طرده بقسوة من ألمانيا. ولـم أسـتطع الإيغـال فـي تفاصيل هذه الحكاية التي تبدو أسطورية، التي تبدو فيها فتاة لعوب وأب قاس، لأنه كـان يفيـق بمجـرد أن أسـتدرجه، ويتركني ويمضي. وتمر أيام دون أن يتصل بي، وكنت أنـا من يسعى إليه، محاولة تجاهل هذا الموضوع تمامـا، كـي أستعيد حضنه الحنون وقبلاته الهادئة مع الوقـت أصـبحت علاقتى ببيتر بديلاً عن علاقتى بالجماعة، ليس فقط بسـبب السعادة والهدوء اللذين تسببهما هذه العلاقة، وإنما أيضاً لأن علاقتى بالجماعة نفسها قد اضطربت بعد عدة اجتماعات.

حرصت على الذهاب مع مليكة وفاطمة كـل أسـبوع. وفى كل مرة كنت أكتشف أشياء جديدة لم أرها فى المـرات

السابقة. اكتشفت أنهم يمارسون طقوساً غريبة، بدت لى بعيدة عن الإسلام، أقرب إلى السحر أو الشعوذة. وسمعت أدعيـة وأناشيد بدت لى مشبوهة. وكان تحكم الآمرة يـزداد ويكـاد يهيمن على سلوكنا وتصرفاتنا. وبدت أحياناً كمن يحاول أن يدخل فى تنظيم العلاقة بين كل منا وربه، وهو الأمر الـذى اعتبرته نقضاً لأول مبادئ الجماعة.

حينما تعرفت على بعض أعضاء الجماعة فى حيـاتهم العادية، حينما نلتقى أحياناً بالصدفة أو حسب موعد مسـبق، كنت أكتشف فيهم أشياء لا تتفق مع ما يبدون عليـه أثنـاء اجتماعاتنا. وجدت بعض النساء- مـثلاً – يتكـالبن علـى مظاهر الحياة. ويسرفن فى اقتناء المجـوهرات والملابـس. ووجدت بعض الرجال ينغمسون فى مجال المال والتجـارة وأشياء شبيهة.

كانت هذه الممارسات تمثل لى صدمات عنيفـة تحطـم الحلم الجميل الذى تصورت أننـى حققتـه بانتمـائى إلـى الجماعة. هذه التناقضات الفظيعة جعلت ثقتى فى العالم، التى كنت قد امتلكت بعضاً منها، تهتز، ويصبح يقينى أن العالم ، كل العالم شرير. لولا وجود بيتر، لكنت قد انهـرت. كـان

بيتر، رغم أزماته، يمثل لى صفوة الحلم، ومكسـبى الكبيـر الذى خرجت به من صلتى بالجماعة. فاكتفيـت بـه، وقـل ذهابى إلى اجتماعات نهاية الأسبوع.

هو أيضاً لم يكن يذهب فى كل المـرات. أحيانـاً كنـا نقضى معظم نهاية الأسبوع معاً. وذات ليلة سبت كنا معاً فى بيتى، وكان علاء مع مليكة وفاطمة فى اجتمـاع الجماعـة، كان هو الذى اختار الذهاب معهما. كنت سعيدة مـع بيتـر، وأشعر بالتحرر من علاء الذى أصبحت علاقتى بـه أكثـر توتراً، وأصبح هو غير راغب فى رؤية بيتر تقريباً. ولكنى لم أكن قادرة على التوقف عن رؤيته، كان يفتح لـى آفاقـاً جديدة طوال الوقت.

فى تلك الليلة، كنا هادئين وصافيين وفجأة نبتـت فـى ذهنى الرغبة فى الرقص، تذكرت رقصتى التى لا تنسى فى منزل صديق محمود. أعربت لبيتر عن هذه الرغبة فبدا غير متحمس فى البداية، ولكنه وافق، بعد أن وجد – فى ذهنـه- مكاناً هادئاً نستطيع أن نرقص فيه – بعيداً عن ضجة بارات مدريد- رقصتنا الخاصة.

كان مطعماً بعيداً نسبياً عن وسط المدينة ولكـن كـان

علينا أن نمر به. كان وسط مدريـد صـاخباً بالضوضـاء والأضواء والبشر. الجميع فى طريقهم إلى الرقص والبهجة، يرتدون ملابس متنوعة بين ملابس السهرة، والبلـو جينـز والـ تى شيرت. ويبدون فى تلك اللحظة، بشراً مختلفين عن هؤلاء الذين تراهم صباحاً فى أعمالهم، بعيدين عن الجهامـة وتقطيب الجبهة والحزم.

حين وصلنا إلى المطعم بهرنى منظره، مطعـم قـديم، بسيط، خافت الأضواء، هادئ رغم أنه لم يكن خاليـاً مـن البشر. أهم ما يميزه أنه كان بعيداً عن الموسيقى الصـاخبة الحديثة، بمجرد جلوسنا ارتقت روحى- وكانت مؤهلة- إلى أعلى درجات الصفاء، كانت موسيقى صوفية هنديـة تغمـر المكان بالهدوء والسكينة.

لم يكن مكان الرقص كبيراً. فى وسط المطعـم، أزواج قلائل يرقصون وكأنهم يصلون، يبتهلون متعانقين، كما لـو كانوا متوحدين، لكن وحدة الروح، وليست وحدة الجسد. مع بيتر تحاضنا وهامت روحانا فى صمت تـام، لكـن طـول الحضن وتأثير النبيذ ولداّ لدى لذة من نوع مختلف عن ذلـك النوع الذى عشته فى كل الأحضان السابقة. استيقظ الجسـم

وتلاحم مع الروح فى نشوة جديدة، فوجئت بأن بيتر هو الآخر يعيش نفس الحالة، لأنى شعرت بعضوه.

-لأول مرة- ينتصب فى مواجهة سرتى. واصلنا الرقص فترة قصيرة، ثم عدنا إلى المائدة.

بعد العشاء، عدنا إلى منزل بيتر. كان ثمة قلق فى مشاعرنا. فرغم امتداد التواصل الروحى العميق، كانت رغبة قد تولدت لدى كلٍ منا. كان هذا واضحاً فى الملمس المختلف ليديه، ولقبلاته، حتى فى الشارع. وحين دخلنا المنزل احتضننى بقوة لم أعهدها فيه. كنت أيضاً أحتاج إلى هذا الحضن، لكنه بدأ يقلقنى ويخرجنى من حالة الصفاء الروحى. بدأ جسمى يشتعل. ولم أكن مدركة إلى أى مدى سوف أستطيع مقاومة جسد بيتر القوى الشهى. لكنى تسلحت بثقتى فيه. طوال علاقتنا لم يرغمنى على فعل شئ. المشكلة فى أنا الآن. أنا التى ترغب، ربما أكثر من رغبته. كان بيتر يضمنى بقوة ولكن فى صمت. قررت أنا أن أتكلم. كان على أن أقنعه أننى أريده مثلما يريدنى، ولكن هناك أشياء فى جسدى لا أمتلكها، وأن عليه أن يقدر ذلك. بدا متفهماً، وحين دخلنا إلى السرير، كانت أول مرة أدخل فى سرير غير

سريرى، استمر يحضنني ويقبلني ويلعب فى ثديىى وبطنـى وبين الساقين. كنت مسترخية ومستمتعة، لأننى وثقـت فـى وعده. كانت لذتى تتواصل لحظة بعد لحظة حتى اكتملـت، وبدأ النوم يغزونى. واصل بيتر المحاولة، وحين لـم يجـد استجابة. أعطانى ظهره ونام.

فى الصباح استيقظ قلقاً متجهماً. وكنت هادئة مستريحة. أدركت أنه لم يصل إلى ذروته. اسـتلقيت بملابسـى علـى السرير، ودعوته إلى. استلقى بجوارى، وضم صدرى بـين زراعيه. وضغط عضوة بين فخذى، واستمر يضـغط بقـوة وصمت، دون أن يحاول الولوج، فقط خلع سـرواله وازاح قميصى عن فخذى، وأخذ يتحرك فوقى يميناً ويساراً حتـى شعرت بالسائل الدافئ يغمر فخذى، انتظرت حتى هدأ وترك حضنى، فقمت وذهبت إلى الحمام كى أتطهر.

اتصل بي الدكتور سامي وأخبرني بـأن المعهـد يعـد لرحلة إلى الأندلس للمبعوثين وأنه سيذهب معهـم. وفـورا رجوته أن يدرج اسمي ضمن الأعضاء

كانت رحلة جميلة وممتعة وقاسية. ربمـا كانـت أهـم رحلة في حياتي.

في قرطبة أقمنا في فندق قديم بجوار المسجد الكبيـر. تجولنا في شوارعها القديمة الضيقة، شاهدنا منزل ابن رشـد وزرنا حدائق القصر الملكي. ثم زرنا المسجد من الداخل. لم يعد مسجدا. تحول إلـى كنيسـة ومتحـف ملـئ بالصـور والتذكارات. أمام اللوحة التي يسجد فيها ابن عبـد ا أمـام الأمراء المسيحيين

- عند أقدامهم، بكيت، وتذكرت كلام هاني - شـعور حزين موجع وممض. كيف تبني الكنيسة داخل المسجد وأين التسامح الذي يدعيه العلمانيون الديمقراطيون.

في غرناطة كان الشـعور بالجمـال والحـزن أفـدح. الحمراء تحفة لا مثيل لها في كل الدنيا. وقفنا سـاعتين فـي طابور طويل لنحصل علي تذاكر الدخول. الأسـبان وأبنـاء دول الاتحاد الأوربي يحصلون علي تخفيض. العرب الـذين بنوا كل هذا لا تخفيض لهم.

الحدائق آية في الجمـال تنسـيقها، أنـواع الأشـجار، ترتيبها، القصر وأجزاؤه، كل هذا يقول أن الذي أنجزه كـان - لا شك - عبقريا. أصداء الموسيقي الأندلسية التي تنساب في جنبات المتحف بهدوء. من الذي صنع هذا هل هم العرب

حقا هل هم العرب الذين هم نحن الآن، أم عـرب آخـرون، عرب تفاعلوا مع الحضارة الأسـبانية وامتزجـوا بأبنائهـا. يقولون أن إبداع هذه الحدائق والقصر، كان مقاومة للمـوت. ظل الملوك العرب يعيشون سنوات وهم يعلمون أنهم هالكون لا محالة، بعد أن استولي المسيحيون علي كل الممالك، ولـم يبق إلا غرناطة. وما كان أمام العرب إلا مقاومـة المـوت بعمل يخلد ويخلدهم. إذا كان كذلك ، فلا مانع، شيء جميل، أما إذا كان الملوك قد استعانوا بالأسبان فهذا شئ آخر. وأنـا بالأمانة أميل إلي هذا الرأي.

ساهم الأسبان أو على الأقل المولدون في صـنع هـذا الصرح العظيم. وأن يبقي هذا الصرح على هذا النحو مـن الجمال حتى الآن، فهذا لا شك يحسب للأسبان الذين حافظوا عليه بعد هزيمة العرب. عنده حق هاني. يمكن لـو كـانوا العرب فضلوا ما كانوش قدروا يحافظوا عليه بالطريقة دى.

كان الدكتور سامى أثناء الرحلة بعيدا وقريبا في نفـس الوقت. كان حريصا على ألا يقترب مني على نحـو يلفـت الأنظار، ومع ذلك كنت ألاحظ أنه يراقبني عن بعد ويختلس اللحظات التي نكون فيها وحدنا ليقترب مني. كنـت أشـعر

دائما بوجوده بجواري في لحظات الحزن، وكأنه يحـاول أن ينقذني من اكتئاب لا شك أنه مر به أثناء زياراتـه السـابقة للجنوب. مرة واحدة فقط حاول أن يدعوني إلى غرفته. ولكن لم يكن ممكنا أن أترك علاء وحده بالليل.

انتهت الرحلة باشبيلية ولم نقض فيهـا وقتـاً طـويلاً. سحابة نهار شاهدنا الفريا، هذا الاحتفال الشعبي الابريلي كل عام بالملابس التقليدية المبهجة والرقصات الشعبية الجميلـة، وأنواع الأطعمة والمشروبات والصناعات التقليدية. كان يوما جميلا رغم حرارة الجو. هناك شعرت أنني استعدت إسبانيا التي كانت في مخيلتي قبل أن آتي إليها، في الجنوب كله كان ينتابني شعور بأنني في منطقة عربية. ورغـم أن النـاس لا يعرفون العربية، إلا أنهم يحبوننا ويشـعرون بصـلة الـدم بوضوح. وقد سمعت أن مجلس النواب المحلي قد طالب بأن تكون العربية لغة رسمية للجنوب، وأظن أن هذا نـوع مـن التزيد لا أصدقه.

في طريق عودتي كنت أشعر بحالة من التمزق المـؤلم لا أدري لها سببا واضحا. فقد كانت الرحلة جميلة، ومعظـم الزملاء كانوا ظرفاء، بما فيهم الدكتور سامي. وعلاء انبسط

جدا مع الأطفال الآخرين. أما أنا، فيبدو أن الحـزن الـذي أصابني كان قاسيا، بحيث لم أستطع التغلب عليه. دخلت في حالة من الاكتئاب، لم تفلح معها محاولات الدكتور سـامي، حتى لمغازلتي متخليا عن وقاره المصـطنع، أو محـاولات الزملاء للثرثرة معي، أو إعلان التعاطف مع حالتي، بـزعم أنهم يعيشون مثلها. لم أكن أصدقهم. من رأى مـا رأيـت، وسمع ما سمعت. لا يستطيع أن يخرج بعـد الآن ضـحكة صافية من قلبه.

أكاد أصل إلى يقين أنني لن أستطيع الحياة في أسـبانيا بعد هذه الرحلة. لا أستطيع فهم كل هذه المتناقضات، لـيس فقط في أسبانيا. بل في داخلي. التناقضات التي فجرتها الحياة الأسبانية في داخلي.

في لحظات كثيرة تذكرت هاني، في لحظـات أخـري تذكرت بيتر، وكنت أتمني لو كان موجودا معـي لأعـرف شعوره هو القريب مني، وفي نفس الوقت أوربي. كنت أريد أن أعرف هل يشعر الأوربيون الذين يعتنقون الإسلام بنفس شعور العربي المسلم. لا أدري لماذا كان حضنه قريبا إلـي نفسي.

اللحظات النادرة مع الدكتور سامي أيضا كانـت دافئـة وتمنيت فعلا لو استطعت الاستجابة لدعوته إلـي الغرفـة. حمدي أيضا لم يغب عن بالي. بالعكس جاءني حزنه العميق يسندنني في لحظات كثيرة. لا أدري لماذا تصورت أنه هـو الوحيد الذي كان يمكن أن يكون في نفس موقفي. لا. لـيس تصورا . هو حقيقة. حمدي فعلا قريب مـن نفسـي جـدا، ويستحق مني اهتماما أكثر. شعرت بالندم أنني لم أكتب ولو رسالة واحدة له حتى الآن.

أنا أنانية وفظيعة رغم ما يبدو علي من كـرم. أسـتغل الناس ولا أعطي إلا ما أرى أنه سيفيدني بالفعل. هـل أنـا كذلك حقا، أم أنني مريضة، لا أدري؟

عدت من الرحلة وقد تضاعف شعوري بالقلق والتوتر. أصبح الحزن هو السمة الأساسية الآن، الشعور باللاجـدوى ولا سعادة في أي شيء حياة مملة وكئيبة، لا أدري ما أفعـل بها. خبر وحيد أسعدني، ولكن سعادتي به لـم تكـن مثلمـا توقعت قبل ذلك. وافق محمود علي الطلاق بشرط التنـازل عن كل حقوقي لديه، وأن يرى علاء وقتما يشاء. قـال أنـه سيأتي إلي مدريد لرؤية علاء وإتمام الإجراءات في السفارة.

لم أجد مبررا لأخبر علاء بهذا التطور. فنحن علي كل حال بعيدون وحين يأتي محمود يحلها ربنا. ولكن علاء ظل قلقه وتوتره بل زاد، ربما انعكس عليه قلقي وحزني. حاولت أن أبذل مجهودا زائدا للاهتمام به، لكني فشلت، لم تكن لدي القدرة علي الاهتمام بأي شيء، سوي انسياقي فيمـا أعـيش دون تخطيط أو ترتيب.

حاولت فاطمة ومليكة مساعدتي دون جدوى. ولما كنت قد أهملت جماعتهم ، فقد قل اهتمامهما بي وبعلاء إلى حـد كبير. وزاد هذا من توتر علاء الذي كان قد تعلق بهما جدا. وألقى هذا علي عبئا إضافيا، على الأقل من حيث الوقت، إذ لم يعد هناك من أستطيع أن أترك علاء معه دائما بعد فتـرة الحضانة.

مع استمرار التوتر زادت عدوانية علاء معي وأصـبح قاسيا يوجه إلى كلاما جارحا، أقسى كلام جارح يمكن لطفل أن يدركه... يبدو أنه لم يعد طفلا. عركته التجارب القاسـية التي مر بها معي. صار يحاسبني على سـلوكى، خروجـي ودخولي، وعلى ملابسى، بعد أن تحـررت مـن الحجـاب واكتفيت بإيشارب خفيف يكشف جزءا من شعري ونحـري.

إستخدم أحيانا كلمات لا أعرف من أين عرفها :يا صـايعة. ربما خزنتها ذاكرته من أبيه. أصبحت في نظـره منحلـة. وكنت أشعر مع نفسي أحيانا أن معه حق. وأن انتقامه منـي بديهي.

جلست إلى أوراقى وكتبت إلى حمدى:

عزيزى حمدى.

وصلنى خطابك وأحزننى حزناً عظيماً علـى مجـدى وعليك، وعلى أنا أيضاً. فلست بعيدة عن همومكم، بل ربمـا أعيش أضعافها. إنك لن تصدق كم الأزمات التى عشتها منذ وصلت إلى هنا، بالإضافة إلى ما تعرفه عن أزماتى السابقة. تفاقمت المشكلات وتكومت بداخلى إلى درجة أننى لم أعـد أعرف كيف أعيش وما إذا كنت سأستطيع الاسـتمرار فـى إسبانيا أم لا، وفى نفس الوقت أعرف جيداً أنه لا جدوى من العودة إلى مصر.لا شئ جديد أنتظره هناك. ربما تكون أنت الوحيد الذى أشعر أننى فى اشتياق إليه. حدثتنى نفسى كثيراً أنك أقرب الناس إلى. وأننى ربما كان ينبغى أن أقدر ما بيننا أكثر مما فعلت. أشعر الآن أننى فى حاجة شديدة إليك. كـان حزنك معى طوال رحلتى الكئيبة فى الأندلس. أجمل بلاد ا

على الأرض. أضعناها وضعنا معها. ولا أمل فى النهـوض بعد ذلك.

أنا آسفة يا حمدى أزيد حزنك، لكنى أعبر لك بصـدق عما أعيشه. الخبر الوحيد السار هو خبر طلاقى من محمود. تصور النذل طلب منى التنازل عن كل شئ. مش مهم. المهم علاء معى وأنا سعيدة بذلك، وإن كان هو الآخر لم يعد سهلاً فى التعامل، أصبح شديد القلق والتوتر والعدوانيـة، وأنـا لا أعرف كيف أتصرف معه. فى الحضانة أرسلوا عدة مـرات يشكون سلوكه ويحذروننى من مغبة تجاهل هذا الوضع.

ما أخبارك أنت. أخبار قصصك ومعهد ثربانتث وزهرة البستان. أرجو أن تكون قادراً على الاستمرار فى إبـداعك على الأقل.

أنتظر منك ولو كلمات. مع أشواقى.

هناء:

طويت الخطاب، ووضعته فى مظروف. ودسسته فى درج مكتبى. لم أكن أدرى على أى عنوان أرسله. بحثت عن خطاب حمدى. فوجدت أنه هو أيضاً، قد نسى أن يكتب

عنوانه على المظروف.

منذ وصلت إلى إسبانيا، لم يحدث أى اتصال بينى وبين هانى. ولذلك كانت مفاجأة لطيفة أن أستيقظ في الصباح علي تليفون يحمل صوته:

- صباح الخير

- إنت فين؟

- جنبك في مدريد

- مش معقول مفاجأة هايلة. جيت إمتى؟

- جيت من إسبوع بس ما كنتش لاقي تليفونك. أخدتـه إمبارح من المكتب الثقافي

- حمد ا على السلامة وجاي إيه زيارة لحبيب القلب؟

- أيوه. وليك إنت كمان. مش يبقي جميل نشوف بعض خارج مصر!

- جميل جدا يا ريت. امتي هاشوفك؟

- النهارده لو حبيتي!

- عندي معاد بس ممكن أأجله. امتي تحب؟

- نقول مثلا ١٢. إنت ساكنة فين؟

- في آخر مترو ٥ و انت؟

- لا. أنا في وسط البلد. تيجي نتقابل في البلاثا مايور؟ تعرفيها؟

- أيوه طبعا

- تعرفي إيه فيها؟

- أعرف قهوة كيخون

- خلاص . نتقابل هناك

- OK. الساعة ١٢

- مع السلامة.

وكان اللقاء جميلا. كان واحشني جدا، وواضح إني كنت وحشاه. تحدثنا كثيراً عن أحوالي في مدريد. ولكن لم أحك له لا عن بيتر ولا عن سامي، وإن كان هو حاول أن يعرف حين سأل عن علاقتى بالمكتب الثقافى والدكتور سامي. قلت أنه كان لطيفا معي وساعدني في حل كثير من المشاكل. وحكيت له عن تطورات موضوع الطلاق الذي

بات وشيكا. ولم أكن أستطيع الحديث معـه عـن تـوتراتي وقلقي. وحكي لي عن الأحوال في مصر. من سـيء إلـى أسوأ، وتحاشي الكلام عن علاقته بزوجته. قال إنها كما هي، لا جديد فيها. لكنه مع ذلك يحن إلـى أحضـاني وقبلاتـي. وكنت أنا أيضا في شوق إليه. قال إنه بعد انتهاء إشرافه علي أصبح يشعر بأنه أكثر حرية في علاقتـه بـي، وأننـا الآن نستطيع أن نصبح أصدقاء حقا.

عرض علي الذهاب معه إلى بيته، يقصد بيت زوجتـه. فرفضت. أكد لي أنها لن تعود من عملهـا قبـل الخامسـة، ولكني كنت قلقة، فحاول أن يقنعني بكـل الطـرق. كانـت مقاومتي أقوي من ضعفي إزاءه. وأخيرا اقترحت عليـه أن يتم ذلك في يوم آخر، في وقت مبكر، حتى يكون لدينا وقت كاف.

في اليوم التالي مباشرة، في منتصف الأسبوع التقينـا صباحا عند محطة المترو القريب من بيته، واصطحبني إليه. كان بيتا جميلا في بناية قديمة في أحد الشوارع المتفرعة من البلاثا مايور، تلك الشوارع التي كثيرا ما تجولت فيهـا فـي الشهور الماضية، دون أن أتخيل أنني سأدخلها يوما. كنـت

أعرف أنها لأغنياء مدريد وخاصة المتوسطين منهم ، وأنـي لي أن أعرف هؤلاء لأدخل بيوتهم .

كانت شقة صغيرة بالدور الثالث ، حجرتان وصالة لكن توزيعهما لطيف، والأهم من ذلك أنها مؤثثة علي نحو آسر. في الصالون ظهرت أرستقراطية الذوق ، عناصر قليلة مـن الأثاث وبسيطة ، هادئة الألوان، موزعة توزيعـاً متناسـقاً. كذلك المكتب . حاول هاني أن يدخلني غرفة النـوم لكنـي رفضت، ولم يلح هو، وبقينا في غرفة المكتب التي تضـم ، مع المكتبات، مكتبا صغيرا وكرسيين ، ثم كنبة اسـتوديو ، جلسنا عليها متجاورين.

كان القلق ما يزال مسيطرا علي ، ولكن مـع الوقـت والحديث والقبلات الهادئة ثم المحمومة زال اضـطرابي ، واستسلمت لذراعيه تهصراني بحنان وقوة ووجـدت نفسـي أستجيب له وهو يخلع عن رأسي الإيشارب، ثم يفـك أزرار البلوزة ويخلعها عن كتفي ليخلو له السبيل إلي ثديه الأيسـر، وأخذ يدغدغ حلمته ويمتصها . ثم استجبت له حين فك أزرار الجونلة وحاول خلعها بصعوبة.

أخيرا كنت بين أحضانه عارية إلا من السروال. ورغم

نشوتي التي كانت قد وصلت إلى حد السكر، انتبهت مذعورة حينما حاول أن يخلعه. ابتعدت عنه لكن هـذه المـرة كـان مصرا، وبدأ يتحول إلى العنف، قاومت مقاومـة الضـعيف وأخيرا استسلمت، معتمدة علي قوتي الداخلية. لا أحد يمكنـه أن يلجني دون إرادتي وعدت إلـي الاستسـلام لأحضـانه وقبلاته. وكان هو يزداد هياجا كلما ضممت ساقي علي مـا بينهما بقوة، حاول أن يقتحم السد المنيع ، دون جدوي. كنت قد خطت فرجي.

كنا نتصبب عرقا وبدا الإنهاك واضحا عليه، والحنـق، وكان من الواضح أنه يفكر في طريقة للخروج من المـأزق. فاقترح أن ينام معي من الخلف، في البداية رفضت ثم قبلـت بشرط. وقِبل الشرط.. ولكن فجأة. ولا أدري كيـف حـدث ذلك، وجدت ذكره بداخلي، وهو يقذف. ذعرت مما حـدث، وحاولت التملص منه ، لكن قوته في الإمساك بي لم تتـرك لي أدني فرصة للمقاومة . فانتظرت حتى انتهي واسترخي ، فقمت مسرعة تطهرت بمناديل ورقية، وارتـديت ملابسـي، وخرجت أعدو.

عذاب أقسى من أن يستطيع إنسان تحمله. ماذا فعلـت،

كيف وصلت إلي هذا التدنى. كيف أقبل بذلك، مـاذا أفعـل بنفسي في هذه الدنيا الغائمة المضطربة؟ أحب كـل هـؤلاء الرجال ، ويعطيني كل منهم شيئا مختلفا أحتاج إليه. ولكن أن يصل الأمر إلى حد الزنا، هذا مالا يمكن احتماله. إنه الخيانة العظمي لحبيبي، الذي زاد حبي له مـع اكتشـافي لطريـق الجماعة.. لكن هذا الطريق لم يعصمني مما زللت إليه. ماذا أفعل؟

في كل اللحظات الحالكة في حياتي، كان ملاذي، وكان دائما رحيما وغفورا. ارتكبت آثاما لا حصر لها إلا الزنا هذه المرة (هل هي اغتصاب؟) أن أقبل شخصا أو أحتضـنه أو حتى أن ينام فوقي كما كان خالد أو هاني أو بيتر يفعلـوا ، ليس زنا. وأنا لم أقبـل ذلـك حتـى الآن ، بـل إن القبـل والأحضان لم تكن تثير في غريزة الجنس القميئـة. كانـت حنانا وأمانا، فهي بريئة مهما كان عنفها وقوتها .

كان حبيبي يسمح لي بذلك ، هكذا كنت أشـعر دائمـا. كانت سعادتي صافية وضميري لا يؤنبني. كنت أعرف أنـه يسامحني . وهو نفس الشعور الذي عشته مع الجماعة وأنـا أرتل الأناشيد وأقرأ الآيات، ومع بيتر. كانت النشوة واحـدة

في كلتا الحالتين . كنت في الحالتين أتوحد معه. ولم تكن هذه النشوة تنقص إلا في حالة دخول شخص آخـر بيننـا . أن تصر آمرة الجماعة علي الدعاء بطريقة معينـة لا ترضـي سواها. أو أن يصر هاني علي انتهاك السر الأكبر بيني وبين حبيبي: الفرج.

الآن أعيش عذابي، خنته ، في الحقيقة ليس رغم أنفـي تماما. لا يستطيع رجل ولوج امرأة، ما لم تكن راغبة بدرجة ما ، وهذا هو ما يعذبني، ومع ذلك فليس لي ملاذ سواه، هل يقبل توبتي!

أهملت علاء، وأهملت دراستي، وتمزقت أشلاء روحي سعيا في طريق أبدو مجذوبة إليه دون إرادتي ، راضية بـه دون أن أعرف ماذا أريد منه أو كيف أسير فيه . عما أبحث لدي كل هؤلاء الرجال؟ هل أبحث عـن الحنـان والـدفء والأمان؟ ولماذا أنفر إلى هذه الدرجة من الفعل الجنسـي. لا أدري .

حبيبي غاضب مني . لا يريد أن يساعدني. فماذا أفعل؟ كياني يكاد يتفتت، وعقلي لم يعد قادرا علي السيطرة .

لم أجد لدي رغبة في التعامل مع أي رجل .لجأت إلـى

فاطمة ومليكة . لم أكن قادرة على الكلام. تصورا أن السبب هو علاقتى ببيتر، اعتقد أنهما كانتا قد لاحظتا أن علاقتي به قد توطدت أكثر مما ينبغي وبدتا قلقتين ولكنهما لم تفاتحـاني في الأمر. تركتهما علي وهمهما، على كل هو أهـون مـن الحقيقة، أخذتاني إلي الآمرة التي حاولت أن تعيـدنى إلـى الجماعة. لم تفهم المشكلة . أنـا سـاعية مطواعـة وذليلـة لحبيبي، لكنه هو الذي يرفض توبتي. لا يقبل شريكاً .

لا أستطيع أن أفعل شيئاً و لن يستطيع أحد مساعدتي.

نفذ السهم، وما من سبيل.